

الدين والحق

2017

تالا



قصة حياة منهوبة

ابن المطر



تالا

2015

الى صوت فيروز..

ومرارة قهوتي ..

الى كل روح لامست روعي يوما..

عندما غنى لها ..

فيروز .. حبيتك بالصيف

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

بأيام البرد و أيام الشتي
و الرصيف بحيرة و الشارع غريق
تجي هاك البنت من بيتا العتيق
و يقلا انطريني و تنطر عالطريق
و يروح و ينساها و تدبل بالشتي
حبيتك بالصيف حبيتك بالشتي
نطرتك بالصيف نطرتك بالشتي
و عيونك الصيف و عيوني الشتي
ملقانا يا حبيبي خلف الصيف و خلف الشتي
مرقت الغربة عطيتني رسالة
كتبها حبيبي بالدمع الحزين
فتحت الرسالة حروفا ضايعين
و مرقت أيام و غريتنا سنين
و حروف الرسالة محيها الشتي

إن قمة الوجد عندما ترى غائبك في نفسك!

عندما تغسل وجهك مساء فتراه يحدق إليك في المرآة من خلال عيونك، فتغض الطرف و كأنك لم تر، تفرك وجهك وعينيك بالماء عل هذا الكابوس اللذيذ أن ينجلي ، وعندما تتجه نحو فراشك وتلبس بجامتك مستعدا للنوم بانفراد ، تشم رائحته تعبق بكثافة من ثيابك فتبدلها وقد فجعت مسرعا، فتزداد الرائحة عمقا وكأنما تصدر من ثنايا جسدك!

تلك الرائحة التي طالما ألفتها وأحببتها واستنشقتها بحب دافئ والتي تميزها من بين آلاف الروائح القريبة ، باتت الآن ملتصقة بك !

تنظر لنفسك واقفا أمام المرآة كالأبله ، تتحس شعرك بل شعر محبوبك الذي يتلبسك، تتلمس جسدك فتشعره به، و بيديه تتحسس قلبه الذي ينبض في داخلك !

هو من كان يملكه ، يقدر مكنوناته ، يعرف أسرارته وخباياه أكثر منك !

تبتسم فتراه في ابتسامتك وتسمع صوته يخبرك بجمالها الأخاذ ويبتسم !

تحرك لسانك على شفقتك لتغيضه فتسمع ضحكاته القريبه لقلبك وتضحك، تضحك أمام مرآتك العذراء، أمام قلبك العاري إلا منه !

تلف ذراعيك حولك وتضمه بقوة، تخبره كم تحبه وكم تشفق له فلا يجيبك بشيء ! ولا يرتد صوته ليحيي روحك العطشى

بل تصحو لترى أبلها يقف عاريا تماما أمام المرآة ، فتدرك متأخرا أنك وحدك

لا محبوب ولا قلوب خافقة ولا روائح ولا ابتسامات ..

تنسحب مكسورا الى فراشك البارد الخالي إلا من همك ، ترمي بجسدك المتعب تتلحف حزنك ، تحاول اجتراح الذكريات ولا ذكريات تكفي لتأتي بالمحبيب ولا سحر في الدنيا يرفع عنك تلبس روحه فيك

تنام بقلبك ، متوسدا ذراعيه وعينيك في عينيهِ ورائحه شعره تغمرك وابتسامة خجلى تداعب مبسمك

نعم نظن أحيانا أننا قادرون على أن نفر بأجسادنا بعيدا و نقطع كل الروابط التي تربطنا بآخرين عاشوا داخلنا يوما ما ، وسواء كان ما نحمله لهم حبا خالصا أو كرها محضا أو مزيجا نعجز عن تفسيره فإن هذا الاعتقاد سذاجة كبرى .

ومع ذلك يستمر الناس في تصديقها وفعلها كحل أخير لفهم مشاعرهم المتأكلة وقلوبهم الهرمة ، فمهما ابتعدنا بأجسادنا تبقى الذكريات ملتصقة بنا ، تسافر معنا لآخر الدنيا و تنام معنا على نفس المخدة وتصحو على أجفاننا الباكية ، ولا تموت إلا بنا .

الأماكن .. والروائح .. ونبرات الصوت الضاحك والأنين الباكي .. دوي الكلمات طقطقة الأثاث.. نفحات الدخان وصوت الآذان .. وهديل الحمام قبيل العصر..

نراهم في فجان القهوة ورغوة الصابون ونشعرهم بهم في أفواهنا مع كسرات الخبز وقضمة الشكولاتة المرة!

لا يمكن أن ننسى...!

ولا أعرف لماذا سمي الإنسان إنسانا استنادا إلى نسيانه ، المشاعر التي لا تغتفر لا تنسى ، واللحظات المشبعة بالعاطفة تفوح كالبخور كلما اشتعلنا ، لا نستطيع أن نختار ما يجب أن ننساه وما يجب أن يبقى فكل شيء يجري بعروق دواخلنا كدوامة ويتوقف في إدراكنا وقت ما يشاء لا باختيارنا ، ولا يمكن لنا أبدا أن نمتلك ذاكرة جديدة منقحة!

لنا ذاكرة قلب غامضة وجسد مسير أعمى وروح تسرح في نومها باحثة عن أحلام توقظها وتعيش بها ولها ، لأن الأمور ليست كما تبدو عليه أبدا ..!

تتسلل رائحة المطر ممزوجة بالقهوة في كوبها الورقي و التي أحملها بين أناملتي المرتعشة أرتدي معطفا أسودا طويلا وقد تبلل شعري ولمع سواده وغطت مياه المطر عيوني ساحبة معها دموعات ثائرة عجزت عن إخفائها، في شوارع لندن الرطبة هناك الكثير من الوجوه التي عثرت عليها ، وجوه تشبه وجهها المحبوب بتضاريس عربية جريئة وسمرة عذبة تذكرني بما أود أن أنساه ، أحاول تجفيف ما علق بعيني من دموع وأرتشف قهوتي المخلصة بهدوء يغلف روح ساكنة قد تراكم

عليها الغبار، هنا حيث لا أحد يلتفت إليك ولا يأبه من أنت ولا من تكون ، لا يهم
إلا ماذا تعمل وماذا ستقدم !

هنا أرض سعادتي وفردوسي المفقود حيث لا أحد سيذكرني من أين أتيت ولا
يعايرني بذنب لم أرتكبه !

لقد هبط عليّ خبر رغبتي بالانفصال عني كالصاعقة ، حاولت أن أقنع نفسي أن
خطب ما قد ألم بها أو أنها ليست من أرسلت تلك الرسالة المرة ، لكن لا أحد يعلم
بوجود ذلك الهاتف غيري، فأنا من أهديتها إياه ، وأعلم كم كانت حريصة على
إخفائه عن عيون أهلها وتطفلاتهم ، ولكن أن تصلني فجأة رسالة منها لتخبرني أن
علينا أن نتوقف عن كل شيء ونفصل لهو أمر بالغ الأهمية والقسوة !

فلا يعني ذلك إلا أنها لم تكن جادة لتبقى ، لتحارب وتنتصر في النهاية .

ويعني أنها مستعدة للتضحية بي والخلاص من قيدي .

ومن يدري كيف أقنعوها وماذا عرضوا عليها لتستبدلني .

لم تشفع لي كل محاولاتي اللامتناهية ولا دموعي ولا إصراري ، فكل ذلك يتوقف
ويعدم بلا رحمة عند من أكون .

لا أدري كيف كنت بهذه السذاجة لأخوض أمرا كهذا ، فهل نسيت من أنا؟

لن يغير أمر مهما كان من أكون و لو كان حبا عظيما عميقا ونادرا ، على الأقل
أمام أناس لا يهمهم إلا مجد الآباء والأجداد بينما مجد الواقع لديهم لا يزن مثقال
ذرة ، فأنا في الحقيقة بلا عائلة ولن أستطيع تكوين عائلة طبيعية في بلدي
والعيش كالآخرين ومهما فعلت.

عند وصول رسالتها انتابتنى حاله غريبة من البلادة وكأنما قد توقف الزمن بي .
وراودني شعور الطفل البارد خائفا ملقى على الرصيف ، يبكي وحيدا ولا يسمعه
أحد فيضيع صوته في فضاء واسع مخيف، لم أقدر على الرد ولا السؤال ولا حتى
مراجعتها في قرارها الذي لا بد أنها فكرت فيه كثيرا قبل أن تنفضه ، حنطت
مشاعري كما هي في تلك اللحظة محاولا أن أحتفظ في قلبي بحضن دافئ ألجأ فيه
إلى التي أحببتها يوما كلما اشتقت !

كل ما فعلته بلحظتها أن قررت حظرها في كل وسائل التواصل الاجتماعي والهاتف فلا أريد أن أضعف يوما وأرسل لها شيئا أو حتى أراها تكتب شيئا عن حياتها الجديدة فأنها بكل جسارة من كل مكان إلا قلبي !

يكذب من يقول إن الحب يصنع المستحيل ! لا شيء يصنعه الحب سوى الألم ! ولا شيء يزرعه فينا سوى الخيبات.

أحيانا أشعر برغبة عميقة بالانتقام ، منها ومن أهلها ومن الدار ومن كل الناس في مجتمعي ، وأن أقطع السنة كل من تحدث عني وعنهما وأفجر رؤوس كل من يتكبر ويعلو برأسه عليّ ، مجتمع يكافئ المجرم ويعاقب الضحية ، مستشرفون مدعون يحاربون النتائج ويغضون أبصارهم عن الأسباب!

وهيام ماهي إلا واحدة منهم قد تظن في أعماقها أنها أفضل وأنقى مني ، وكيف لابنة مجتمع أن تكون مختلفة عنه ولو جرفت العواطف وأمالتها عن حيد أهلها ، فهي بلا محالة ستعود لمن تكون ، وأعود أنا لما أكون !

هيام لم تعش مثلي بين وجوه لا تشبهها وملامح لم تألفها ولم تقاس مرارة الحرمان وشح المشاعر وانعدام الامان ، ولم تواجه نظرات الإستحقار من مجتمع حتى أهل الخير فيه ممن يتبنى الأيتام قد ينوء عنا لأننا بنظرهم مصدر عار دائم ولوثة تطعن في الشرف!

يدفعون بنا دفعا نحو الجريمة والدعارة والانحطاط لأنهم يرونه مكاننا الأنسب هناك ولدنا وهناك يجب أن نكون ، نلبي رغباتهم ونكتفي من الحياة بجسد ومال ولا حق لنا بحب ولا عائلة ، أعرف أننا حتى لو وصلنا أعلى المراتب وبمجهودنا الشخصي المحض فإن أبنائنا سيظلون يحملون وصمة العار التي منحها لنا أبائنا وللأبد في بلد يعتز بالقبيلة ويموت ويعيش لأجلها ، لا مكان لأمثالنا أبدا !

لذلك اخترت أن أهاجر وأترك كل شيء أترك لهم قلبي الموجوع وذاكرتي المتعبة وأحمل جسدي لعالم جديد قد أعثر فيه عليّ ، لم أحتج وقتا طويلا وأنا أبحث عن عمل فهنا تتحدث الشهادات والمؤهلات لا أسماء القبائل والأنساب ، رتبت أموري بسرعة ، شقة صغيرة في وسط البلدة حيث يكتظ الناس بجميع أعراقهم وألوانهم وروائحهم يمشون في الصباح مسرعين بلا ابتسامات ولا مجاملات زائفة ، يؤدون

واجباتهم ويكدحون بلا ملل ولا توقف ويروحون عن أنفسهم بالمساء بالشرب
والرقص والمواعدة .

في ذاك المساء البارد كقلبي وأنا مشي بخطواتي المثقلة وقلبي الجلمود عائدا من
عملي متهاديا كالمومياء ، سقطت عيني على كلب أبيض صغير مبقع الظهر
بزخارف فاتنة باللون الأسود والبنّي يجلس في زاوية الطريق مرتجفا وقد أسدل
أذنيه بحزن بائس ، التفت الجرو باتجاه خطواتي مركزا نظراته الحائرة إليّ
وكأنما يفكر في هذا الغريب الضخم إن كان سيركله و يرجمه بالحصى أو
سيرمي له فتات من طعامه، اقتربت وظل معلقا نظراته علي متأملا وكأنما
يستجدني بعينه اللامعتين البريئتين ويبدو بلا شك من هزاله أنه جائع مهجور قد
شردته الوحدة وفكت بسعادته تماما كما فعلت بي ، اشتعلت عاطفتي وتدفقت
مشاعر قلبي فجأة فشعرت برغبة غامرة بتقبيله وحضنه والبكاء معه ، زادت
ضآلته كلما اقتربت حملته بين ذراعيّ وأنا أدفئ ارتجافه وأمسح جسده النحيل
بكفي ، فلم يقاوم بل استرخى مستسلما للقدر وكيفما كان ، مشيت به إلى شقتي
الباردة علّ حبه أن يدفئها وعلّ حسه أن يقتل الوحدة التي تفترسني بلا رحمة ولننم
سويا ونأكل سويا ونستمع لأنفاسنا معا .

كان وفيّا وسعيدا وكأنما ملك الدنيا بي ، فسخرت له نفسي بالكامل ، ألاعبه
وأطعمه وأخرجه ليتمشى كما يفعل الناس هناك ، انخرطت بسرعه في عالمهم
وأصبحت فردا منهم بلا تميز سوى لكنتي العربية الطاغية على إنجليزيتي الوليدة
والتي كنت أجاهد لإخفائها والإنهاء من آخر علامات العروبة في فمي ، فهنا
وطن تعيش فيه وهناك وطن يعيش فيك .

كان ذلك اليوم يوم عطلة حيث أطلت السهر مع زملائي وعدت متأخرا ومترنحا ،
لا أذكر متى ولا كيف ولا أين كنت ، لم أره تلك الليلة ولم ألحظ غيابه ، بل نمت
كال ميت المروجع ، استيقظت متأخرا ومستتكرا على كلبتي موكي أنه لم يوقظني
كعادته قبل منبه الساعة ، كانت الشقة هادئة ومرتبة كما لم أعتدها فقد كان يتفنن
بتخريب وعضضة كل شيء ، وإثارة غضبي ثم تهدئتي بنظرات حنونة يتقنها
وذيل أعوج مهزوز ، ناديته كثيرا ولم يأت قافزا ولا عقا وجهي كعادته قمت وقد
شعرت بغصة في قلبي ، استمررت في ندائه المتواصل فمنذ عامين ونحن نعيش

سويا ولم ينس يوما واحد أن يوقظني ويقفز على بطني ويلعق أصابعي مقبلا إياي بطريقته المدبقة ، كان صديقا وفيلا لا أعرف الخوف بجواره وروحا مخلصا رقيقة تدفئ برد مشاعري ، أجزم أنه يحبني بلا شك ولا موارد أكثر وأعشق من حبي لنفسي أو لنفسه حتى أو اي حب آخر مر أو سيمر عليّ !

بحثت عنه بكل مكان بين الأرفف وتحت الطاولات في كل الفتحات المنزوية التي يحب النوم فيها ولا من أثر، خرجت مناديا عنه في الجوار أطرق بيوت الجيران واسأل عن موكي ، تعاطفت معي فتيات هنديات يسكن بجواري وخرجن للبحث عن موكي معي ، الجميع كان يصرخ بصوت عال " مووكي " ومووكي لم يكن يرد !

كمية الهلع التي أصبت بها لم تكن عادية ولا طبيعية ، كنت خائفا عليه ومتأملا أن أجده أفكر به وأشعر به كقطعة شاردة من روحي ، هل لحق بهرة وتاه ويقف مرتجفا بمنتصف الطريق؟ أدهسته سيارة عابرة ؟ ربما اختنق بكرة كان يلعب بها أو أخذه أطفال عابرون ، نشرت الفتيات الهنديات صورتني وأنا أحمل موكي في أرجاء الحي مذيلا برقم هاتفي مع عبارة كتبت بخط أسود عريض "مفقود" والله أعلم من منا المفقود، موكي الكلب الصغير أم التائه بدون هذه الروح الحلوة الحنونة !

مرت ثلاثة أيام ثقيلة مملّة حزينة ، كل حزن العالم تجمع في قلبي ، لم أكن أعلم أن هذا الصغير يمنع عن روحي كل هذا الحزن ، بل ويبعد عني غبار المشاعر السوداء ويستلقي في داخلي شاغلا كل فراغاتي !

تلك الأرواح الشفافة النقية الصادقة التي تحب بإخلاص و بلا مصالح ، لا يهمها إن أحببتك ما لونك ولا شكلك وكم وزنك ولا كيف هي رائحتك!

ينظرون لقلبك مباشرة ويلمسون روحك الضعيفة المتوارية خلف ذلك الجسد المتعالي ، يتحملون أقذر ما فيك و بأضعف حالاتك والتي قد لا يهتملك عندها أقرب الناس إلا متأففا ولو في سره ، لم يضايقني يوما ولم يقل شيئا يعكر مزاجي ، لم يجرحني أو يهجرني ، لم يفعل شيئا يشعرني بالحزن سوى أنه اختفى ، كنت أجد صعوبة في النوم وهوليس بجواري يدفئني بفروه الناعم ويشعروني بالحنان والأمل والسعادة .

عدت من عملي متعبا مثقلا بهمومي أبحث في وحشة شقتي عن نباحه ولهائه
وابتسامة عينيه عندما يراني ويركض نحوي بفرح ، الظلمة حلت على قلبي وكأنما
كانت تتحين الفرصة ، فرصة وحدتي ، اتصلت علي الفتاة الهندية وبلكنة بريطانية
حازمة أخبرتني أنها آسفة جدا لكنهم أنه عثروا على موكي ميتا !

ركضت إليهم وهو يجتمعون حول جثته المنتفخة ممسكين بالمناديل حول أنوفهم من
تنانة الرائحة " يبدو أنه مات مسموما " قالت إحدى الفتيات وهي تحركه بعصا تحملها
بيديها " ربيت العديد من الكلاب وأعرف كيف يفعل السم بهم " ، طبطبت على كتفي
"لقد كان كلبا رائعا .. يضعون السم للفئران في هذه المنطقة ، موكي كان فضوليا "
أردفت .

كنت أقف مندهشا بلا حراك ولم أنبس بكلمه واحدة " سيدي هل تريد أن تدفنه بمكان
ما..؟ لو تركته هنا سيأخذه عمال النظافة "

لم أنظر في عينيها ولا لأي من الأعين المكتظة حولي و انسحبت بهدوء صامت بعد
أن ألقيت على موكي المنتفخ نظرة أخيرة وعدت أدراجي وسط ذهول من حولي ، لم
أعد لشقتي بل عدت لحزني ، وكأنما كنت أنتظر لحظة كهذه تقصمني وتعيدني إلى
لحظة الصفر .

مشيت طويلا تنساب الدموع من عيني في ظلمة ليل ووحشه قلب ووحدة روح ، تعبت
باحثا عن الأنس ولا أنس ، وعن الحب ولا حب، وعن الأمل ولا أمل .

وصلت إلى جسر حجري عال حيث الهواء البارد يلفحني منذرا بعاصفة مدمرة
مصدرها قلبي ،أخرجت من معطفي ورقه مهترئة كنت أحتفظ بها بجانب قلبي .

ربما قد حان الأوان ..الآن...!

كلمات

جيران خليل جبران

ألحان

نجيب حنكش

أعطني الناي وغنّ فالغنا سرّ الخلود
وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود

هل نَحَذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور
فتتبعَت السواقي وتسَلَّقت الصخور
هل تحمَّمت بعطر وتنشَّفت بنور
وشربت الفجر خمرًا في كؤوس من أثير

أعطني الناي وغنّ فالغنا خير الصلاة
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الحياة

هل جلست العصر مثلي بين جففات العنب
والعناقيد تدلّت كثرِيَّات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً وتلخّفت الفضا
زاهداً في ما سيأتي ناسياً ما قد مضى

أعطني الناي وغنّ فالغنا عدل القلوب
وأنين الناي يبقى بعد أن تفنى الذنوب

أعطني الناي وغنّ وأنسَ داءً ودواء
إمّا الناس سطور كُتبت لكن بماء

" في عيد ميلادي "

الشعور المنطوي الذي نشعر به عندما تغيم السماء فجأة ، فتلتهم الغيوم السوداء السماء وشمسها وتظلم قلوبنا بالخوف والفرع ، تعتقد الغيوم أنها قد تخضع الشمس لكنها تكون واهمة ، هي تخدع بظلمتها عيوننا وتحجب عنا حقيقتها ، حقيقة ماتعانيه على الجانب الآخر ، حيث أشعه الشمس تسليخ بخارها وتحولها إلى سراب وحتى تصل إلينا وحتى تغتصب الشمس بجبروتها وإصرارها ركام السماء ، وتعتصر دموعها السحب الراحلة ، تكون قلوبنا قد تهادت بالحزن والخوف والوهم .

ولكن وحينما تذوي الشمس غائبة فتظلم السماء تنتصر السحب بضعفها فترعد وتبرق ، وترغي وترزد ، وتتنافض مخاوفنا فنبحث عن أنيس في ظلمة الليل تحت اللحاف ، ولا أنيس إلا عيون قطرة متيقظة قد أخافها صراخ السماء فتكورت بداخلنا تترقب القيامة ، فنهذا ولا نهذا ، وننام ولا ننام ، ونغازل محبوبنا ولا محبوب ، تغرقنا الايام بمصاعبها وقسوة تجاربها وفي كل مرة نرى أنفسنا عرايا فنرتبك ونندهش من ضعفنا ، وفي كل صباح نموء ونرتدي ثياب القوة وأقنعة الإنسان ونمضي باسمين غاضبين ، سعداء باكين .

لا أدري إن كانت لحظات الفرح أصلا قليلة أو أنها كثيرة علينا ، ولماذا لا يكون لنا من هذه الدنيا نصيب سوى نصيب الانتظار و الجلوس على تكة الحياة والتأمل في أفراح الآخرين وأحزانهم ، وعد الشعيرات البيضاء تتكاثر في رؤسنا وتجعيدات السن تتراكم قرب أعيننا المتعبة ، لما يبتعد الفرح منا كلما اقترب ، ويستحيل سرايا كلما صدقناه ؟

أهذه حياتنا ؟ أهذا كل شيء ؟

لا شيء أشد قسوة من إحساس الفقد سوى الشعور بالوحدة ، أن تجد نفسك متوحدا بنفسك لا أنفاس تلحق بأنفاسك لا صوت يرد عليك سكون الليل ، تنام وحدك على الأريكة وتسقط وحدك ولا تجد يدا تسندك ولا تحميك ولا تشد ضعفك ، تستند على كبريائك لتتحرك إن أصابتك الحمى تمشي متعثرا بدموعك لترتشف شربة ماء تروى بها لهيب النار بداخلك ، ترتعد مكشوبا فلا أحد يغطيكي ، ولا أحد يسمع أنينك فتبكي بلا صوت ، تحن لأي صوت ، أي شجار ، أي بكاء ، أي ضحك ، لو حتى شخيرا مزعجا يعلمك أن كائننا ما ينام معك .

في سريرك متسع ، وفي مخدتك متسع - وقلبك خال قد مل الانتظار، حيث لا أحد سيأتي ليمأله ولا يشغل فراغاته البائسة ، تشغل التلفاز عل صوت مذيع الاخبار الأجش يتلو عليك مصائب العالم لتخرج من صمت وحدتك ، الوحدة وحش لا يرحم ، يدمر ويقتل الأنس في قلوبنا ، ويجفف ألسنتنا الصامتة ، وينسينا لذة الحديث مع الآخرين ،وتبادل النكات التافه ، تنابز الألقاب والمزاح الثقيل ، نظرات العيون وحديث الأجساد ، دفء المشاعر ، واحتراق الأعصاب في لحظات الغضب .

عندما نعتاد الوحدة ويصبح لهو الاطفال وضحكهم إزعاجا غير محتمل لأسماعنا ، ومجالس الحديث والضحك ولقاء الآخرين مضجر لنا حد القلق ، ويصبح أي صوت عدا صوت الريح والموسيقى حديثا غير ذو جدوى ، فنأنس لوحدتنا ونستكن في زاوية أمننا وتعتاد مشاعرنا على السكون ، على نفس الأريكة الباردة نكرر الأعمال ذاتها باحتراف ، ونحتضن ذات المخدة بلا شعور ، حينها فقط ندرك أن الوحدة قد استولت علينا بالكامل وتخللت أرواحنا بلا منازع و أي منازع ؟ من بين ملايين البشر الذين ينتشرون في كل مكان في بقاع الأرض، لا يوجد شخص واحد تقدر أن تتحدث معه أو لتبوح له، لا أحد ليستمع إلى ترهات قلبك ويضحك معك على تفاهاتك ، فأنت وحيد حتى النخاع .

وستظل الأيام تتكرر وتطبع أحداثها في حياتك كما هي بلا تغير ولا أحداث مرتقبة، ذاتها مرارة القهوة التي تشربها كل يوم ، ذاته العطر الذي لا يشمه أحد ، ذاته الجسد الذي لم يمسه أحد ، واليد التي لم تصافح من أمد والشفاه التي لم تترتو بحب ، والعينان اللتان لم تلمعا لرؤية غال، لا شيء تنتظره ، سوى شيخوخة وحيدة حزينة ووجه تتكدس فيه التجاعيد فتزيده قتامة ، ومملكة تطمس في الرمال قبل أن يعيش فيها أولأجلها أحد .

ياه.. يا لظلم الحياة ! ويا لقسوة الزمن !

لم يتغير شي ! منذ طفولتي وهي ذاتها الوحدة التي كنت موثوقا بها، لكنها سافرت معي إلى البعيد " وكبرت ولم يكبر قيدي" ، في طفولتي وعندما كانت تأسرني الهموم ويثقلني إحساس الضياع وتضيع في عيني نظرة إشتياق لحضن حنون ، كنت في وقت ما أثور بصراخ مجنون وأضرب وأرفس المربيات والأطفال من حولي وأكيل لهم جميعا عشرات الشتائم القذرة المتقنة والتي تعلمتها مبكرا، أخرب كل شيء أمامي وأدوس كل ما يقف في وجهي ، ولا تنتهي ثورة الغضب تلك بل ثورة الاشتياق التي لم يفهمها أحد ، إلا بحبسي في حمام الجن المظلم والمرعب للجميع .

تسحبني المربية فطينة بينيتها الضخمة ولحمها المترهل المتراقص من ساقي بعد أن أدميت ذراعها اللحم بأظفاري المغروزة فيه بقوة وأنا متشبث بالأرض وبكل ما حولها صارخا بسخط غاضبا ملتاغا ، ترفسني بقدمها وترميني بالداخل وتغلق باب حمام الجن .

أقف وحيدا متمسكا بما تبقى من كبريائي وأصرخ راكلا الباب والجدران بأقدامي ويدي حتى تتوجع أطرافني وتركع عيناوي و ييأس قلبي و أقتنع ألا أحد سيجيبني في هذا الظلام الدامس سوى الجن ، يغنون لي معزوفة الحزن والخوف بأنين الريح ونشيحي ، أتكوم حول نفسي المرتعشة باحثا عن حضن ولو كان لأذرعني وأترك العنان لعينين حزينتين وقلب مكسور أن يبكي !

نعم ولم لا أبكي ؟ فهنا تعلمت أن أكبت دموعي ولا أظهرها إلا في ظلام دامس فلا يلحظ إنكساري كائنا من كان ، وحتى عندما تغافلني الدموع في لحظات فرح مصطنعة كحفلات تخرج الأخوة أو زواجاتهم كنت أرسلها للبعيد ، لأقصى مقر في قلبي ، إن البكاء على بساطة انسيابه لهو أعظم مسكن لجروحنا وهو تعبير الروح عن عجزها التام والقلب عن تدفق مشاعره مهما كانت ولأي سبب ذرفت .

ولم يعلم عن دموع الليل تلك إلا مخدتي وصديقي جاسم ، الصديق الذي طالما أحببته وطالما دافعت عنه ودافع عني ، مسحت دموعه ومسح دموعي ، تقويت بضغفه وتقوى بضغفي ، هو بصيص الأمل الذي أمدني بالرغبة في الاستمرار في الحياة ، والرغبة في الخلاص من الدار ، ففي حياتنا نصادف الكثير من الأصدقاء لكن من يحفر اسمه في قلبنا هو من يحرك شيئا في روحنا المتعبة ولو تباعدت المسافات وقلّت الكلمات لكننا أمامه لا نكون إلا ما نحن عليه بلا مساحيق ولا إضافات صديق الروح لا صديق الحزن والفرح ، يرمقني باستهتار بعينه الآسيويتين ووجهه المربع وأنفه الطويل ، يبدو مزيجا غريبا ملفتا ، مضحكا ، أبلها وهزيلا ، كانوا ينعنونهم " ابن الخدمة " وكثيرا ما كان يخفي غضبه بالضحك أو البكاء على فراشه .

جاسم استنفذ كل طرق الضرب والعقاب والحبس المعروفة في الدار ، لكنه لم يقدر على التوقف عن تبليل فراشه وهو نائم ، كنت أشعر بالخزي لأجله في كل صباح وهو يقف ناظراً للأرض زاما فخذه وقد فاحت رائحة البول منه وظهرت رقعة البلب على فراشه وسرواله كشاهد على الجريمة ، بينما شتائم المربيات وضحكاتهم لا تتوقف

فتسحبه فطينة من أذنه وتضربه على رأسه وكتفه وتركل عضوه المذنب ، كانت أمانيه أبسط من أي أحد منا فسيكون سعيدا جدا لو استطاع أن يتوقف عن التبول نائما!

هذا كل ما يريده وهذه كل أمانيه، ويا لها من أمنية لطفل مسكين كسره شح العاطفة والحاجة لحضن حنون ، دائما ما كان يدهشني بسرعة شفائه من أي جرح فيعود شامخا رافعا رأسه غير مبال ، وهكذا كان حتى أصيب بالتهاب كلوي بسبب منع الماء عنه ، والاكتفاء بالقليل ومن الالتهاب للفشل ، ثم خرج للمستشفى في عمر السادسة عشر ولم يعد، ويا له من محظوظ !

حيث نشأت كانت الوجوه المختلفة تتنوع بشكل مبدع ، عيون مسطحة وبشرة سوداء وأخرى زرقاء بأنف مدورة ، دماء مختلطة وتشكيلات تدفع للتعجب ، ليست كما نراها بالخارج حيث لكل مدينة بصمتها ولكل عائلة ملامح تختص بها ولا تبعد عنها كثيرا ، كان هذا التنوع يدهشني و كثيرا ماكنت أفكر في أشكال آبائهم وأمهاتهم ، بينما كنت أسمع المربيات يتساورن أنني قد أكون ولد عائلة مرموقة من ملامح وجهي المحددة الأنيقة ، كل يوم وبعد صلاه العشاء نجتمع في وليمة عظيمة نتقاسم نفس أنواع الطعام وبنفس الترتيب والطعم والرائحة وبنفس الوقت ولا يحق لنا أن نرفض وجبة ما أو نتأخر عنها لأنها ستجربنا بالتأكيد لعقاب لا يستحق العناء .

ولا يحق لنا أن ننام في غير مواعيدنا ولا أن نثور ضاحكين باللعب في غير وقته المنصوص ، لأن العقاب أو كما يمكن لي أن أسميه "التعذيب" هو أول وسيلة لردع المخالفين ، يقال إن العقاب النفسي أشد قساوة وألما من العقاب الجسدي وأقول - من واقع خبرة عريقة في أغلب أنواع العقوبات - أن تعريض أي كائن للألم هو أسفل عمل قد يقوم به كائن آخر ولو كان لأهداف يراها شريفة .

إن الجسد بكل ما فيه من أعضاء داخلية أو خارجية لهو بوابة الروح وكيونة النفس فكيف لأي بشر أن يتعدى عليها؟ وكيف لآخر أن يلمسه أو يؤلمه أو يقترب منه دون إذن ورضا؟ وماذا تبقى من كرامة الانسان بعد انتهاك جسده؟ الضرب لا يتوقف على الأحاسيس المؤلمة التي تنتقل من خلايا الجلد للدماغ ولا العلامات الزرقاء والخضراء للدماء المتكدسة باحتضار ولا الجروح المنتفخة وعلامات السياط والأحزمة الموجهة ، ولا ظلال الأيدي وحفر الأصابع المغروزة على الأذرع والأكتاف ، ولا حمرة العينين واسوداد المحاجر ، فكل ذلك يعدو هينا أمام صرخات الروح بالخوف

والارتعاش فزعا لفقدان الامان وفقدان السيطرة على ملكية اجسادنا بالكامل ،لنكون للحظات عبيدا لا نملك اجسادنا بل نقف خارجها بأرواحنا نتأملها بانكسار وهزيمة ونحاول الانكار بآخر ما تبقى لنا من صوت ، صراخ ..بكاء..وأنين ! وعندما نعود لتلك الأجساد المتهتكة لا نعود كما كنا أبدا ، فتجربة العقاب تلك تكون قد حفرت بأحكام في ذاكرة قلوبنا وأجسادنا ولا تتمحي أبدا !

كنت أربى فأرا صغيرا تعرفت عليه في غرفه الجن ، وكنت أتناقص معه فترات الخبز الذي أخبئه له في جيبتي ، كان فأري سمبا يعرفني جيدا ويميز صوتي الحنون معه عندما أنادي بهمس ، يركض نحوي بأنفه المهتز الصغير ، يتعلق على ثيابي ويجلس في كفي ، كنت أحبه كثيرا كما يمكن لقلب مثلي أن يحب ، وعندما أشتاق له أحرص على إشعال أي مشكلة للدخول لحمام الجن والحديث معه ، لكنني تجرأت يوما وحملته معي لغرفتي رغبة مني أن ينام بجانبني فكانت نهايته ونهاية تعلقي بأي كائن لطيف ، فبسرة لم نفهمها كان سمبا مسطحا على الأرض كورقة بالية !

يومها عوقبت بصرامة مضاعفة وبكيت بكاء لم أبكيه من قبل بكاء بلل لحيتي الغضة وشعيرات الشنب الرفيعة التي خطت وجهي البكر ، لم يكن يتبقى على سن الثامنة عشر سن الحرية والإنعتاق سوى سنتين اثنتين كنت أسلي عن نفسي فيهما وأنا أفكر بالحرية التي أحلم بها وأخاف منها .

في هذا السن بالذات زادت المضايقات والتحرشات من زملائي ومن عمال الدار ، فجسم فتى طري قوي وبلا سند كان سببا كافيا ليغري أي مريض شاذ ملوث الفكر والضمير ، كنت في وقت ما عاجزا عن صدها ، فعندما يندس أحدهم في فراشي لا أقوى على فعل شيء سوى البكاء بصمت و تجرع الألم والعار لكنني تمرست مع الوقت و أتقنت مهارة الصد والمقاومة ، و لم يعد تخويفهم وإرهابهم يجدي معي .

مبكرا هتكت طفولتي وتعلمت أولى الخطايا وما بين لذة وخوف وألم وذل كنت أتأرجح في دوامة حب ضائع ومشاعر مغلوطة ، فهنا شوق لدقائق معدودة وحب ينتهي بتأوهات مقرفة وشعور مريع ، وهنا اقتحام وانتهاك لحرية الجسد والتصاق كرية واغتصاب مخزي .

مرت الأيام صعبة ،ثقيلة ومرة ، لا تكفي الكلمات لوصفها ولا السنين لطيفها ، وظل
بداخلي طفل حزين يموء بعيون مذعورة وقلب مكسور ، خائف يشتاق لحضن حنون
،ويحلم أن يحتفل بعيد ميلاده ولو مرة واحدة!

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

أنا لحبيبي و حبيبي إلي
يا عصفورة بيضا لا بقى تسألني
لا يعتب حدا و لا يزعل حدا
أنا لحبيبي و حبيبي إلي

حبيبي ندهني قلبي الشتي راح
رجعت اليمامة زهر التفاح
و أنا على بابي الندي و الصباح
وبعونك ربيعي نور وحلي

و ندهني حبيبي جيت بلا سؤال
من نومي سرقني من راحة البال
أنا على دربو ودربو عاجمال
ويا شمس المحبة حكايتنا اغزلي

الحب مطر

أتذكر ذلك اليوم جيدا ، بكل تفاصيله الدقيقة برائحته وبرودته ، وبكل صوت سال وكل دقة قلب أهرقت ، فقد كان يوما ممطرا وأنا لا أنسى أيام المطر الشحيحة في بلادي .

كنت عائدا للتو من العمل وكعادتي أبحث عما يشغلني ويتعبنى حتى أعود للمنزل منهذا ، أندس كالطفل الممجوع في فراشي مرهقا خاويا لا يشغل عقلي سوى حاجتي العميقة للنوم ، مررت على المكتبة مسرعا قبل أن أتوجه للنادي ، فقد كنت أبحث عن كتاب في مجال التسويق الذي أعمل به ، واتصل عليّ عامل المكتبة يخبرني بوصوله ، كنت أنظر للساعة وسط الزحام و كأنني على موعد مع النادي وكأنما النادي حبيبتي التي ستغضب أن تأخرت عليها وتهجري !

ركنت سيارتي بعيدا وقفزت مسرعا وأنا أحدث الكثير من الضوضاء السخيفة حولي ولا أرى أحدا أمامي ، فكل ما أراه أنني تأخرت على النادي وأنا لا أحب التأخير ابدأ، ارتطمت بالباب ، ثم حافة الرف ، ثم بفتاة جميلة تشع بالدفع والحياة فتاة غيرت لي حياتي بأكملها بل صنعت لي حياة !

ارتسمت ملامحها بسرعة في مخيلتي وكالزلازل هزّت كل ما في داخلي بينما كانت تكيل الشتائم عليّ بصوتها الدافئ الحنون حتى في أوج غضبه ، اعتذرت لها كثيرا ولا أعرف ما قلت لكنها فيما يبدو لم تقبل اعتذاري .

يعرف الرجل تلك اللحظة الي يقع فيها بالحب ، يعرف جيدا ذلك الشعور المهيّب الذي يطغى على قلبه فيخيفه كثيرا ويحرك مشاعره كزلازل ضخم ، فلا يبقى فيه شيء بمكانه ، لا ليس كأي نظرة إعجاب خاطفة ، فالحب حينما يصل إلينا لا يطرق الباب بل يقفز في أحضاننا بلا مقدمات ، فلا نحتمل أن نكون ما كنا عليه قبل الاحتلال ، يستولي على كل تفاصيلنا ، ذاكرتنا ، مخيلتنا ، ابتساماتنا المتوحدة دموع آخر الليل ، أحلام اليقظة عندما نفيق ، رشفة السيجار و مرارة القهوة و كل شيء !

يتمدد داخل أجسادنا ويحولنا لأشخاص آخرين تماما، يهذبنا ويروضنا ويغلب حيوانية ذكورتنا ، وفجأة يجعلنا نرتقي معه و به للأعلى ، هناك في الأعلى حيث

الشوق الخالص والفداء بالروح ، حيث التضحية بالوقت والمال والراحة لأجل عيني المحبوب ، هناك حيث تتلاقى أرواحنا وتتحدث أنفاسنا ، و حيث نقبل كل التحديات المريرة ونرسم الأحلام وندرس الأمل ، هناك عندما يسطع ذلك الضوء المنير من قلوبنا فنرى ونسمع ونحس وكأننا نتلبس جسدا واحدا ، هناك حيث ضوءنا يسمو بنا عن كل ظلام الآخرين وظلمهم ، وكل مصاعب الحياة وأذيتها ، فنشرق به ونسمو معه وكأننا ونحن بين يدي المحبوب ما ذقنا حزنا قط ، جنة الخلد ونعيم أهل الارض .

أدركت لحظتها و بلا شك أنها مرادي وملاذي ولي، وحينها أصبحت أتعتمد الحضور شبه اليومي للمكتبة علني أحظى برؤيتها ولو من بعيد، فتلكم العينين أسرتاني وظلتا تلاحقاني في عمق الليل الطويل وهي بلا شك لم تخلق إلا لي ! وحتى شتائمها كانت ترن في مسمعي عذبة وحلوة كعصفورة تغني بل كقصيدة حب ملغمة .

تجاهلنتني كثيرا حتى شعرت بالخجل من نفسي ، وكان شيء ما في داخلي ينهرني عما أفعل ويخوفني بما قد يحصل ، لكن جبروت عينيها كان أقوى مني ومن مخاوفي ومن كل ترهات عقلي ، وسحر روحها كان يجذبني كمغناطيس، وكنت أشعر بكهرباء جسدها تتحرك بسرعة وتتخللني كلما بدت لي .

وعدت نفسي ألا أحدثها و أكتفي باستراق النظر إليها من بعيد ، لكنني ما وفيت بوعدتي وأنا أشعر بانجذابها المتكبر نحوي ، وبكيماء الحب تتسرب من انكسار نظراتها وانحناءات صوتها الذي لا يمكن أن أخطئ معناه .

ذلك اليوم كانت تحمل بين يديها الحبيبتين " قواعد العشق الأربعون " تتصفحه باندماج بالغ وأنا مندمج في جمال كفيها ورقتهما وأحسد الكتاب الذي ظفر بهما عني وبينما كانت تريد إعادته لم أتمالك نفسي .

- الكتاب أكثر من رائع ..عجيب..!
- نعم فعلا يصوغ الكلمات بطريقه مذهلة..! قالت وهي تتصفح الكتاب دون النظر إليّ

"إذا لم يتعلم الإنسان كيف يحب نفسه حبا كاملا صادقا فلا توجد وسيلة يمكنه فيها أن يحب ، لكنه عندما يبلغ تلك المرحلة سيشكر كل شوكة يلقيها عليها الآخرون فهذا يدل أن الورد ستنهمر عليه قريبا "

رفعت رأسها تتبع صوتي الذي كان يحفظ الكتاب الذي بين يديها والتقت لأول مرة عينيَّ بعينها لقاء سريعا خافتا يحفل بمشاعرحيه ملتهبه وماهي الا ثواني و قطبت حاجبيها ونظرت إليَّ محتقرة ، فلم أتمالك نفسي وانفجرت ضاحكا جذلا وانسحبت وأنا أحس بضحكتها المكبوتة العنيدة ، كنا نلعب معا لعبة " الاستغماية " أختفي فتبحث عني وتغيب فأشتاق لها ، كانت عنيدة ، بل كانت العناد كله ، ولم يكن يملأ رأسها الجميل سواه.

أحببت عنادها وأحببت استفزازها ونظراتها المغرورة ، فالغرور يليق بها كما لا يليق بأحد ، وبعد عدة رسائل مكتوبة اختطف عقلي وقلبي بالكامل ولم تأخذ فقط كل وقت النادي، ولا ملأت كل أوقاتي بل كل قلبي وروحي ، ولم تبق من عقلي شيء .

تمكنت من كل تفاصيلي ، كل خلاياي كانت تعشقها بل كنت أتنفس هواها وأعبد رضاها ، ولم أكن لأرى في الدنيا سواها ولا حتى نفسي، سرقتنا أيامنا وليالينا ما بين ضحك وشوق ، حب وخوف ، وكان الخوف متواريا يطل علينا بخجل ليعيدنا للواقع المرير.

لم أعد أحتمل أن أحبها أكثر ، ولا أطيق أن أشتاق لها أكثر .

كنت أريدها بين أحضاني وأتملك جسدها كما تملك روحها وتملكتني، بكيت كثيرا، وأنا أفكر أنها قد لا تكون لي ، وبكيت أكثر مرتعدا وأنا أتخيل ردة فعلها عندما تعرف حقيقتي ، تمنيت إنني لم ألتق بها يوما ولم أتجرع مرارة حبها المرهق.

كل صباح كنت افتح عيني وقد قررت أن أخبرها وأن أترك القرار لها ، فمن حقها أن تعلم من يكون حبيبها ،ومع أنها لم تسألني يوما عن أهلي ولا عائلتي ، لكن السؤال كان يلح عليَّ بعنف ، فكنت أغضب أحيانا من لا شيء وأنهاي الحديث معها بطريقه غريبة فتغضب من غرابتي ولم تعلم أنني كنت غاضبا مني ، من الجبان المرتعب من قول الحقيقة خلف سماعة الهاتف ،ثم يأتي بالمساء فأرقد عازما على تنفيذ قراري بالغد

تقاذفتني الأفكار وامتحتنتني ، فما أحمله لها هو حب حقيقي وأنا غير مستعد لخسارته ولن أكون ، وحبها العظيم يزداد ويكبر كل يوم وكل لحظة ومع كل تصبحه أفتح بها عيني على خيالها ومع كل تمسية أنام بها على صوتها المنغم ، نعم كنت أنانيا بحبها وكيف لا أكون ! كيف سأعيش بدونها يارب.

بدأت أتصرف معها بغرابة ملحوظة ، قسوة وغلظة لا تستحقها ولا تناسب رقتها وكأنما أمحص حبها أو أقودها بيدي للرحيل ، نفذ صبر جميلتي بعد احتمال فهجرتني طويلا ، مرت أسابيع مظلمة كئيبة كنت أعيشها بلا روح بل لم أكن أعيش، لم يعد للطعام شهية ولا للنوم حاجة ، كنت غاضبا من نفسي وليس منها ، متمسكا بإبعادها عني قدر ما أستطيع ، لكنها قدرتي المحتوم وأين للإنسان أن يفر من القدر .

بعد حين وجدت منها رسالة قصيرة " اشتقت لك " فلم أتمالك نفسي واتصلت عليها ردت علي باكية وكنت مثلها ..

- لماذا يا عبدالله ؟

سكت طويلا كدهر ، لم أكن قادرا على نفث تلك الكلمات ، لم أكن راضيا أن أعرف نفسي " كلقيط " ، لحبيبتي التي تراني كاملا.

كان أمرا صعبا مؤلما و جارحا يضرب في عمق كياني ورجولتي ، وكأن روحي تنتزع مني ، فيا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا.

- عبد الله أرجوك أخبرني ما بك؟

- لقيط

- ماذا ؟

- أنا لقيط ليس لدي أهل ولا أعرف من هي عائلتي عشت بالدار حتى كبرت

قلت بصوت أشبه بالموت

ساد صمت قاتل .. ولم تنبس بكلمة واحدة

- حسنا أشعر بالنوم الآن يا هيام .. تصبحين على خير!

قلت وأنا أختنق ببكائي وأغلقت الهاتف قبل أن أستمع لرددها الذي لم يكن

كانت تلك أبشع لحظة أمربها طوال حياتي على مرارتها ، فكيف لرجل أن يخبر محبوبته التي تفتخر به وتعشق كل ما فيه أنه لا شيء.

وكأنما انهار حلم حبي بل انهارت كل حياتي ، الله وحده يعلم ما تفكر به الآن عني والله يعلم أن كنت سأسمع ذلك الصوت المعشوق من جديد .

مرت تلك الليلة كأسوء ما يكون، حتى إنني تمنيت لو إنني لم أخبرها وانسحبت من حياتها لأي سبب تافه، كبقية الفتيان إذا ما هموا بالرحيل أو سئموا من يحبون فيخترعون الأسباب ويزخرفون القصص ، لن تستعصي الطرق ! على الأقل كانت ستحتفظ بذاكرتها بصورة مثالية عني ، لكن حبها كان أقوى من أن أكذب عليه أو أخدع صدقه .

أقفلت هاتفي وتكورت كالجنين في سريرتي أمارس اجتراح الذاكرة وجلد الذات وأتمنى الموت كما لم أفعل من قبل ، أغمضت عيني وأنا أدعو الله أن لا أفيق ليس في هذه الدنيا .

مرت أيام طوال بالكاد كنت أتحرك بها ، تغيبت عن العمل وأصبت بحرارة منبعتها قلبي ، بعد أيام جررت نفسي جراً إلى العمل الذي خفت أن أفصل منه بسبب انقطاعي وإغلاق هاتفي ، وبعيون غائرة وروح منكسرة كنت أجلس منهمكا على مكتبي وأحاول التقاط ما فاتني وتراكم عليّ من عمل ، دخل علي صانع القهوة النوبي بسمرته اللطيفة يعرج حاملا باقة ورد بيضاء ندية من الأوركيد الخالص برائحها الفواحة وضعها على مكتبي وانصرف وعليها ظرف أبيض كتب بداخله

" إذا لم يتعلم الإنسان كيف يحب نفسه حبا كاملا صادقا فلا توجد وسيلة يمكنه فيها أن يحب ، لكنه عندما يبلغ تلك المرحلة سيشارك كل شوكه يلقيها عليها الآخرون فهذا يدل أن الورد ستنهمر عليه قريبا "

لست أنا من تحتاج أن تعرفك أنت من يحتاج أن تعرفني !

ابتسمت محتضنا باقة الأوركيد الفواحة ومقبلا على الحياة كرجل جديد وروح حية منتشية .. هذه معشوقتي .. وهذي ألهمتي التي ردت إلى الروح وأحييتني .

أحبك كما لم يحب رجل إمراه .. أحبك يا حياتي وفرحتي ..

كلمات

جبران خليل جبران

ألحان

محمد عبد الوهاب

سَكَنَ الليلُ وفي ثوب السكون .. تَخْتَبِي الأحلام
وَسَعَى البدرُ وللبدرِ عُيُونٌ .. تَرُصُّدُ الأيام

فَتَعَالَى يا ابنةَ الحقلِ نَزْوَرُ .. كَرَمَةَ العُشَّاقِ
عَلَّنَا نُطْفِي بِدَيَاكِ العَصِيرِ .. حُرْفَةَ الأشواقِ

إِسْمَعِي البُلْبُلُ ما بين الحقولِ .. يَسْكُبُ الألحانُ
في فضاءٍ نَفَحَتْ فِيهِ الثَّلُولُ .. نَسَمَةَ الرِّيحَانِ

لا تَخَافِي يا فَتَاتِي فالنجومُ .. تَكْتُمُ الأخبارَ
وضبابُ الليلِ في تِلْكَ الكُرومِ .. يَحْجُبُ الأسرارَ

لا تخافي فَعُرُوسُ الجِنِّ في .. كَهْفِهَا المسحورِ
هَجَعَتْ سَكْرَى كَادَتْ تَخْتَفِي .. عن عُيُونِ الحُورِ

وَمَلِيكَ الجِنِّ إِنْ مَرَّ بِرُوحٍ .. والهوى يُثْنِيهِ
فَهُوَ مِنِّي عَاشِقٌ كَيْفَ يَبُوحُ .. بالذي يُضْنِيهِ

حظ مسحور

أنا إنسان أوّمن بالحظ في هذه الحياة !

فهناك من يولد وفي فمه حلمة من حب وتفتح له أبواب السماء ، وتحضنه مباحج الأرض ، يخلق بوجه جميل ومحبة من كل من يراه ، عائلة أصدقاء وأحباء ، يدرس في أفضل المدارس والجامعات و يعمل بأكبر المناصب ، ويضاجع أجمل النساء ، ثم يتزوج ابنة عمه العفيفة معصوبة العينين طرية الخدين بكر الشفاف ، يكون أسرة تبدو متماسكة وبواجهة مجتمعية لا تهتز، وقلب لا يعرف الألم أولئك الناس الذين لو رفعوا حجرا من الأرض لعثروا على خزائن من ذهب أو بئرا للنفط ، أولئك المحظوظون الذين لا يتعثرون بالطريق ولا يصابون بالحوادث ولا تخسر تجارتهم ولا تمطر السماء على رؤوسهم ، يلعبون بالنار فلا تحترق أصابعهم ، ويلعقون الأسنة فلا تخذش ألسنتهم .

بينما هناك من يولد بأقدام مشوهة وأعضاء ناقصة ، عيون ضعيفة ووجوه كئيبة ، آباء متوحشين ، وأزواج مجانين وخائنين ، لو أشعلوا آخر شمعة في حياتهم ستطفئها نسيمات ريح غادرة ، هم الذين لا يتوقفون عن السقوط والقهر والموت بلا قيمة .

هم أولئك من أتيت منهم ، هم قبيلتي وأهلي ، هم من حملت موروثات نحسهم ، فأنا لا أتعدى كوني غلطة عظيمة وسيء حظ كبير ، مبدعة هي حياتي في تعكير صفوي وسرقه فرحتي ، منذ أن وعيت بالدار وأنا أرى أبسط الأشياء البديهة للآخرين تبدو عصية عليّ وتسلب مني .

النوم محسوب والضحك مكتوب والشقاوة بعقابها والأحضان من شوك ، لا أفرح بملوى إلا تنتزع مني ، ولا بنوم إلا انتهك عرضي ولا أنس بصديق إلا وتخطف صداقتنا ، وكأن الله ينتقم فينا لخطايا البشر ، وكأن الكون يأخذ حقه من سعادتنا

لكن يبدو أنه قد رضى عني أخيرا ، واكتفى الكون من تعذيبي ، فتبدل حظي وانقلب ، فكيف لقلب أبيض شفاف ينبض بحب لذيد وعيون نقية شقية ، وروح هائمة في العشق كروح هيام ، أن تحبني فلا يتبدل حظي ، بل كيف لا أكون محظوظا وحتى النخاع .

هب السعد علي من حيث لا أدري وانتفضت كل أحلامي المحنطة من مقبره أحزاني
فلم يعد للشقاء ذكر ولا للألم ذكرى ، فذاكرتي تبدلت وقلبي تلون ، فكل السعادة هي
وكل الأحلام وكل الأمل وكل الحظ ، فكم هو محظوظ رجل مثلي أن تعشقه فتاة مثلها

وأخيرا وبعد طول شقاء رحت أرى الحياة بعينين مختلفتين ، وقلب راح ينبض كقلب
طفل رضيع جذل يمتص الحليب من صدر أمه بنهم ، دافئ هو صدرها ، حنون هو
حضانها ، دنيا هي عيناها .

" أنا طفلك يا ماما هيام " قلت متلعبا وأنا ألعب بخصلات شعرها المتطايرة
بأصابعي وقد غاص راسي في حنان صدرها ، وغاب عقلي محلقا في سماء عينيها
اللامعتين ، ضحكت وهي ترتب شعري بيديها " وأي طفل عملاق هو أنت "

أحب مشاهدتها وأنا نائم في حضنها ، أتأمل منظرها المهيّب الجميل ، وأتمنى لو كنت
فنانا أنقل هذا الجمال للآخرين ، وأرسمها من موقعي بماء الذهب تلك الجميلة المبدعة
في حبها ، الساحرة بعينها ، سارقه القلوب المجنونة

- هيام

- لبيه

صمتنا طويلا ، وكان لذيذا صمتنا كما هو حديثنا ، ففي لحظات الحب الحقيقية تصبح
اللغة غاية في السذاجة ، وتصبح الكلمات استخفافا بالمشاعر ، وكيف لكلمات من
ثمانية وعشرين حرف ومهما اصطفت وتناغمت أن تصف مشاعر طفل في حضن
أمه أو روح في جلال ألقتها .

وعلى قدر ما كان الموقف ينبض بالمشاعر الحية ، واليدين متشابكتين والأحاسيس
المتدفقة تتسرب بين الأصابع وتتسلل مسرعة إلى شغاف القلب ، إلا إنني أحب أن
أنطق تلك الكلمة من أربعة أحرف وأشعر بها تخرج من فمي لأجلها ، أحب قولها
كثيرا ، وأشعر بنشوة كبيرة وعارمة تتدفق كالحمم اللاهبة من فمي إلى قلبها مباشرة
وكأنما هي كلمة سرية تفتح بوابة قلبي وقلبها .

- أحبك .. أحبك هيام .. أح..

وضعت إصبعها على شفتي فأخرستني

- أعرف يا عبدالله

ثم اقتربت مني بخفة وطبعت على شفتي قبلة رقيقة حلوة وهمست

- بالفعل لا بالقول

اعتدلت في جلستي لأعيد لها قبلتها بالفعل ، فأرجعتني وراحت تحتضن رأسي وتقبل طفلها الكبير وتبكي ، أحسست بدموعها التي انسابت على وجهي قبل وجهها وخرجت من قلبي قبل عينيها ، قفزت كمن أصابه مس

- هيام ما بك ...؟

قالت بصوت متهدج حزين كمواء هرة صغيرة

- بي أنت ..أنت يا عبدالله

- حبيبتني أرجوك ..لا تبكي ..تعلمين ما يحدث لي ببكائك

- أخشى أنني سأبكي كثيرا

- أعدك أنك لن تبكي ..لن تبكي عيناك وأنا حيّ

لمعت ضحكة من وسط دمعاتها وقبلتني في فمي مخرسة إياي مرة أخرى

- بل سأبكي كثيرا وأنت حي

- إذن سأموت ...!

قلت بحزم فضحكت بجنون وهي تمسح عينيها وأنفها وتردد جملتها المعهودة

- ليس الآن .. ليس بعد .

تجمدت أبلهاً وأنا أراقبها تغرق في نوبة ضحك باك ثم انتفضت وهي تلبس عباءتها وتتنظر للساعة المعلقة على الجدار

- اسمع لقد تأخرت كثيراً .. يجب أن أذهب حتى لا أموت أنا

ضحكت ساخرة فهمست

- بسم الله عليك ..روحي فداك !

أمسكت ذقني متحسسة لحيتي المدببة كما تحبها

- بسم الله عليك أنت أيها الرومنسي ..يا سيد الأحلام .. قول لي كيف ستفداني
بروحك لو أنهم ذبحوني ؟ هل ستقول وأنت ساجد ياربي أعطها روعي بدل
روحها التي أزهقها ؟ أم ستجعل روعي تتلبس جسدي فأعيش بدلا عنك ؟

ضحكت مجددا وقد أعطتني ظهرها مستعدة للرحيل وهي تربط الغطاء بأحكام
على وجهها القمري المنير، أمسكت بذراعها بأحكام من الخلف وسحبته قائلا بحدة
لم تعهدها

- سأتزوجك .. لن أتركك

أفلتت يدي وهي تنن بدلال يهشم الفؤاد

- طيب أوجعتني .. برفق يا بطل ..

- أنا لا أمزح سأتزوجك .. رغما عن كل الكون .. وستكونين لي وحدي !

- وكيف ما شالله ! وأهلي؟ ستخطفني؟ أو ممكن... ستسحرهم مثلا ؟

قالت ساخرة

- والله فكرة السحر جيدة

قلت ضاحكا وأنا أقترب منها وأحتضنها من خصرها النحيل وعيني على
عينيهما وصدرها الحي النابض يضغط على قلبي بعمق لذيق ، أفلتت من يدي
برشاقة

- طيب يا ساحر زمانك عندما تجهز العمل السحري بلغني !..!

ابتسمت لي ابتسامة حزينة ظلت عالقة في عقلي محفورة في فؤادي تتراءى لي
كل وقت وكل حين ، أغلقت الباب خلفها ورحلت بصمت

فيروز .. ضلوا تذكرونا

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

الله معاك ياهوانا يا مفارقنا
حكم الهوى ياهوانا وتفارقنا
ويا اهل السهر يلي نطرونا
بكرا اذا نذكروا العشاق
ضلوا تذكرونا، تذكرونا تذكرونا
ضلوا تذكرونا

يا حزني السعيد انتهيينا وتودعنا
ما بنسى شو بكينا وصلينا تتضلك معنا
ويا اهل الهوى يلي نطرونا
بكرا اذا نذكروا العشاق ضلوا تذكرونا
تذكرونا تذكرونا ، ضلوا تذكرونا

نبقى سوى وصوتك بالليل
يقللي وانا عم اسمع
بجبك حتى نجوم الليل
نجمه ونجمه توقع
وخلص الحب وسكتت الكلمه
وتسكر القلب ما وقع ولا نجمه
ما تاري الكلام بيضلو كلام
وكل شي بيخلص حتى الاحلام
والايام يتمحي ايام

ابتهال غاضب

يرحل الأشخاص وتبقى الأشياء لتمحص ذكرياتنا معهم ، وتمتحن شعور قلوبنا اتجاههم هكذا هم البشر لا يقدرّون قيمة الأشياء إلا بعد رحيلها ولا يقيمون شعائر الفقد إلا بعد الزوال ، وعندما نكون أمامهم وبقرّبهم نمسح دموعهم ونسكت بكاء قلوبهم يتغاضون عن حبنا بكل استعلاء ، ويتمادون في كبريائهم حتى تبعد المسافة فنرحل أو يرحلون ، وعندها يصبح الكلام بلا معنى ، والمشاعر بلا هدف ونفقد قيمة حبنا ولذة الشجار على توافه الأمور وحينما ننسى لمعة الفرحّة عند التقاء عيوننا وننسى صوت آخر انكسار وآخر الكلمات الساذجة، ولا يبقى لهم سوى تلكم الأشياء العنيدة التي تحاول جاهدة اجتراح ذكراهم فلا تستطيع لأنهم رحلوا بكل شيء .

بكل حبهم ، بصخبهم داخل قلوبنا، بعبث سلطانهم في دهاليز عقولنا بما تبقى لهم و بطعم الذكريات ، عندما نقدر أن نحتضن الأشياء ذاتها ونشم رائحتها لآخر مرة ، فلا نحس بها ولا نتذكر روائعهم عليها ، وبكل كبرياء نقبلها قبلة الوداع ونمضي .

كثيرا ما كنت أتساءل في سكون وحدتي أسألة لو سمعها من حولي لكفروني وأنا رجل مؤمن حتى النخاع ، لكنها كانت تلح علي باستمرار، فكيف لرب حكيم أن يخلق إنسانا ينبت كالفطر زائدا في هذي الحياة ؟

كيف لرب عليم بكل مكنونات الكون أن ينفث روحه العظيمة في جسد يعلم مسبقا أنه لن يكون له أي فائدة ولا قيمة ولا معنى؟ كيف لإله عادل أن يترك روحه المبجلة تسري في جسدي الضعيف الملقى على رصيف ما ، فلا ينهشه كلب ولا تدهسه سيارة عابرة ؟ ولا حتى يختنق بطرف ثيابه أو تقتله جرثومة تعشعش في نتانة المكان ؟

لماذا أبقى حياً وأنا وحيد جائع خائف ولا أحد يريدني ولا يهتم لوجودي ؟ ويموت الأطفال الآخرون بين أحضان آبائهم وأمهاتهم ، وحليب حلو دافئ يملأ بطونهم ينتشلهم الموت من دفء بيوتهم وقلوب آبائهم المحبة المحطمة ومن حياة رغبة أعدت لهم و يصعب حقا التخلي عنها ، ومستقبل يتمناه أي انسان من كرامة وعز وفرح وتبقى روحي الضعيفة الفقيرة المنكسرة التي لا تهم أحدا متشبثة بهذا الجسد النحيل الباكي وكأنه آخر تحد لها ، بل كل ما تبقى من ضعف ، تدافع عنه بشراسة وتأبى أن ترحل إلى خالقها !

أأكون كافرا عندما أغضب منك يارب ؟

أيجب أن أغضب منك أنت أو من أبوي ؟

لماذا تركت نطفتي تنجح بالوصول لرحم أمي بينما ملايين النطف تموت وآلاف النساء عقيمات ؟ وملايين المرات التي يتزاج بها الرجال والنساء تنتهي بلا تلاقح ؟

لماذا يارب وأنت العالم لا تنهي مأساتنا منذ البداية وتحرم الممارسين الخاطئين كأبائنا من الإنجاب ؟ وأنت وحدك تعلم أنهم لا يستحقوننا ولا حتى يريدوننا ؟

ألا تقدر أن تهب تلك النعمة لمن ينتظرها ؟

لرجل عاشق لزوجته يبذل الغالي والرخيص وهو يتعذب يوميا ويبتهل إليك ألا يموت مقطوعا بلا ذرية ، يحن لسماع بكاء طفل يحمل اسمه ويشاركة شبابه وكهولته لكن رحمها يأبى أن يحمل له ويزدهر ، وأنت تعلم !

لا تسخط عليّ يارب ولا تكرهني أكثر !

فانا أعيش بوحشة وغربة قاسية ، وجفاف قلبي روحي أنت أعلم به ، أحن إلى قلب يحتضنني ، ويد تمسح دموعي ، وأسرة أعرف في قرارة نفسي أنها تحبني حتى يوارى جسدي التراب فتبكي لذكراي كل عيد .

قد تكون وحدك من يعلم كل تفاصيلي و أوجاعي وكل تلك الآثام التي اقترفتها وكل الظلم الذي حط علي منذ ولادتي ، وحدك من أوحيت لرجل ما أن ينزل في ظلمة الليل ليرمي قمامته بدل أن يتركها للصباح حتى يدركني، وزوجته توبخه لإهماله فيمر بجانب المكان الذي ألقيت فيه ، ويسمع في سكون الليل ورطوبته أنفاسي المتهدجة الماضية للزوال بعد بكاء خائف طويل فيلتقطني من بين النفائات ويزيل عن وجهي وأنفي الأوساخ العالقة ويركض بي مندهشا مذعورا إلى زوجته .

تلك الأم الحنون التي منحتني بلا تردد أول حمام دافئ ، و أول قبلة حانية وأول درة حليب محبة ومن حضنها إلى دار الإحتضان ، حيث ألف حضن ومائة أم وأخ وأخت لا يشبهون بعضهم أبدا .

كيف لأنثى ليست أمي ولا أحمل جيناتها ولم أتعذ من دمها ولم أركل حشاياها
وأطرب لدقات قلبها أن يكون لها قلب أحن عليّ من قلب أم أنجبنتي؟

وتظل تلك الأم تلاحق أخباري باهتمام وتسال عني من حين لأخرى حتى وري
جسدها النبيل الثرى وهي تحلم أن تراني عريسا وتردد في مسامعي " تزوج وفرحنا
فيك يا عبدالله "

هل أنت من زرعت في قلبها كل ذلك الحب ؟ أم استبدلت قلبها بقلب أمي ؟

كنت تراني وأنا أكبر بين عينيك .. غنيداً .. جباراً .. عصبياً .. ثائراً .. مكسور الفؤاد
غاضباً على نفسي وعلى الحياة بأكملها .

كم تمنيت الموت وأنت تعلم ، كم دعوتك ورجوتك أن تنهي مأساتي اليومية من ضرب
وعقاب وإهانات في الصباح وإذلال وانتهاك بالليل

دعوتك كثيراً لكنك لم تستجب لي ، لم تكن دموعي كافية لترحمني وتشفق على لترفع
روحي إليك ، حتى إنني جحذتك و أنكرت وجودك لأنك لم تستجب دعواتي !

لكنك تركتني أكبر برعايتك ومنحتني جسدا عريضا مفتولا قويا ، وملامح رجولية
مفترسة تحمل في جوفها قلبا هشاً موجوعاً ومحبطاً وتجذب أصناف مرضى من
الناس الذي يتفنون في استخدامي وإهانتني والتمتع بي .

حتى إذا ما فردت أجنحتي بعد الثامنة عشر حلقت بعيدا عن الدار، وعن كل ما يذكرني
بها وتركت كل ماورائي ، كل حزن وألم ، وكل دمعة سفكت بلا إثم وكل جرح عميق
لم يندمل ، رحلت وخضت الحياة كرجل قاس لا يهमे أحد ولا يفكر إلا بيومه .

وأين لي من أفكر به ولأجله ؟

درست باجتهاد وحصلت على وظيفة ممتازة ، كآلة أعمل بلا توقف ولا كلل ، وعندما
تخور قواي أعود لشقتي الخالية من أي روح أو نفس ، ولا صوت يرد علي سكون
الليل سوى صوت التلفاز وطقطقه الثلاجة المسكونة

وبكل هدوء تركت قلبها يتسلل لقلبي الجلمود ، و تركته يتمكن مني ، تلك الشقية النقية
الأنيقة الفاتنة ، مرة كالقهوة، مبهجة كإشراقة الشمس في حضن عاشقين ، محبوبتي
لوزية العينين تموء كالقطة في أحضاني ، وتحضن طفولتي كأمرؤوم وتشبع رجولتي

كأنثى كاملة الغرور، حنونة قوية ومجنونة، في سواد عينيها عالم عميق وعشق سحيق
وبحر لا تنضب كنوزه .

أجيب على غضب أسئلتها بقبلة، وتقرأ قلبي ككتاب ، وتقنات على مشاعر روحي
المكشوفة واضحة جلية بلا مواراة ولا تجميل، تحتوي غضبي تداوي انكساراتي وتقبل
جروح قلبي ، تضحك بصوت جدول رقيق وتغضب كاللبوة المهابة ، لم تجمع
الأضداد في امرأة إلا هي بل لم تخلق يارب من قبل ولا من بعد امرأة تشبهها ولا
بكمالها البديع .

ألقيت بي في أحضانها حتى حسبت أنك أخيرا قد رضيت عني وأنت أخيرا قررت أن
تنهي معاناتي وتستجيب لدعواتي بطريقتك المقدسة ، وإنني أخيرا سأجد ما يبرر
وجودي في حياة يملؤها البؤس والأسى واللامعنى .

ورحت أرى كل عذاباتي لا تستحق شيئا ، لا تستحق قبلة عميقة أخوضها معها بعيون
شبه مفتوحة لا نرى إلا خيالاتنا ولا نسمع إلا صوت الشفافة الذائبة ، وهي تأكلني
وتفترسني بعشق محموم ، وأتلفذ بقطاف مكنوناتها وبعثرة جسدها وأضيع مع كل قبلة
فتقتلع الأحزان من قلبي قطعة قطعة ، وأتعري من كل ألم وكل ماض ، فلا هم يستحق
الذكر عند هذه السعادة ، سعادة لقائي بهيام .

وتحت عينيك ومع استحالة اللقاء كنا نلتقي ، سترتنا وتركتنا نلتقي خفية عن أعين
الجميع حتى ظننا أنك قد نسيتنا أو رضيت عنا ، قررنا الاكتفاء بالأحضان والقبل حتى
لا نغضبك ولتبارك لنا حبنا ، وفي كل مرة تعصف بنا القبل وتسري الأعاصير في
دمائنا نبتعد ولأجلك نطفئ النيران وننطفئ ، ونكتفي بالنوم في الأحضان والتصاق
القلوب !

في ذلك اليوم غطت وجهي بشعرها الخمري وأنا استنشقه بسكر عميق وراحت تنتهد
بحزن أيقظ في رأسي الأسئلة .

- هيام ما بك

أدرت رأسها بإصبعي الذي لامس ذقتها الرقيق فغاص وجهها القمري في ليل شعرها
فتفاجأت بعينيها الساحرتين تدمعان مرة أخرى ، انتفضت وقد ركضت دمعته مريرة
إلى عيني فلمعتا

- هيام ما بك ياروحي

أشاحت بوجهها ومسحت دموعها

- لا شيء

- لا شيء وتبكين..؟ مابك ؟

دارت وجهها مرة أخرى فنظرت لعينيها اللتين ذابتا في دموع زرقاء بلون كحلها

- أريد أن أبقى معك ما حييت.. أخاف أن نفترق..!

احتضنتها داخل أضلعي بقوة وأنا أحبس دموعي وشهقات قلبي

- من قال أننا سنفترق ؟ لا أحد سيأخذك مني

غابت في بكاء حزين مكسور انتزعت معه روعي في أنينها اليائس

- هيام انظري إلي..! لن تكوني لغيري سأتزوجك رغما عن الدنيا بأكملها

دفعنتي بيدها وهي تضحك ببكاء

- مجنون كعادتك

- لست مجنونا.. سأتزوجك برضاهم أو بدونه

- كيف يا عبدالله كيف..؟ قالت بضجر

- نتزوج بالسر ونضعهم أمام الأمر الواقع

- لن ينفع يا مجنون سيقتلونني

- لا أحد يستطيع أن يلمس شعره من رأسك وأنت زوجتي ، سنتزوج في بلد

مجاور سأرتب كل شيء لا تقلقي سيوافقون رغما عنهم

- ألا تعلم أن القانون معهم ويستطيعون تطليقي منك لعدم التكافؤ..؟ ثم إنهم

بالنهاية أهلي كيف أفعل هذا بهم ؟

- إذا هم أهلك ويحبونك، سيعرفون أين هي مصلحتك وأين سعادتك وسيحققونها لك

- أنت لاتعرف الأهل مستحيل

- لماذا لا أعرف ؟ لأنه ليس لدي أهل ؟ لأنني لقيط ؟ قلت متشنجا غاضبا

التقت عينيها بعيني الحادثين فقبلت شفتي واحتضنت غضبي كما تفعل دائما

- أنا أهلك يا حبيبي !

وفعلا ياربي تزوجنا وباركت لنا الزواج وسارت كل الأمور كما هو مخطط لها بلا خوف ولا إرتباك ، وتباركت أيامنا بحبك وحبنا وسعادتنا المضطربة بازدياد المتدفقة للكمال ، قربتنا ولممت شملنا وأحطتنا برعايتك ، فكانت لي الأخت والصديقة والزوجة والحبيبة والأم التي حرمت منها ، بل كانت كل أهلي وعزوتي وكنت لها كل شيء ، كل شيء تحبه.

سهلت لنا الأعذار والحجج للقاء فحتى مع انتهاء دراستها ، اختلقت قصة الفصل الدراسي الإضافي حتى يتسنى لها التواجد اليومي بشقتنا صباحا بينما انتقلت أنا للعمل بدورية مسائية لطيب لقاءنا و تنضج ثمار حبنا وتحت عينيك مرت الأيام ، حلوة هنية كما لم أحلم بها يوما ، هي حلم جميل ودنيا احتضنتنا بابتسامتها ومتعتنا بسعادة كسعادة المؤمنين في الجنة.

ثم وفجأة ومن حيث لا أدري غضبت علينا، ولا أدري ما الذي أغضبك ، سحبت كل الإمتيازات التي منحتها لنا وتركتنا عرايا في طريق الشوك المظلم ، شاء القدر وأنت من شاء أن تعرف والدتها أنها لم تعد تذهب للكلية وأنها قد أنهت قبل عام كل المواد المترتبة عليها، جن جنون أمها و واجهتها بما اكتشفته بالصدفة من إحدى صديقاتها

لم تتجراً على أن تخبرهم أننا قد تزوجنا بالفعل بل احتالت عليهم بالأعذار ثم أخبرتهم عني وأخبرتهم بأننا نريد أن نتزوج، ربما كان هذا أخف وطئاً كما قالت ، ومع أنني أردت أن نواجههم بالحقيقة دفعة واحدة إلا أنها أصرت على الدخول إلى معركتها بهدوء ،فهي كما تقول تقدر على إقناع أهلها بالطيب من القول .

لم يكن ليهمني كم الإهانات التي سمعتها ولا التجريح في شخصي ومنشأى ولا السب ولا الشتائم التي كالوها لي ولا تهديدهم بتدميرى فلي هدف أكبر من ذلك بكثير لا شيء

بالدنيا قد يـزحـزحني عنه ، ولولا أنني قد قطعت عهدا لها ألا أخبر أحد بزواجنا حتى
تسمح لي لكنت قد دخلت إلى غرفتها وحملتها على كتفي وأمام ناظريّ والديها
ومضيت ورحلت بها بعيدا عنهم وعن كل شيء، لكنك شئت أن يكون ما كان .

شئت أنت أن نكمل مسيرة الألم والعذاب .

أن تسرق فرحتي وتتركني غربيا كما ابتدأت .

تنتزعني من صدر حبيبتي وأنا طفل أضع الحب من قلبها

تغتال فرحتي الوليدة الوحيدة فترحل الحبيبية للأبد

في ذلك اليوم وصلتني رسالتها الأخيرة تطلب مني أن أرحل من حياتها بعد كم من
المحاولات الفاشلة والمريرة ، لم أذرف بعد تلك الرسالة ولا دمعة واحدة وكأنما
تجرت مشاعري بل انتزع قلبي من مكانه.

حسنا وكما تريدين ، سأرحل وأحررك مني ولن تسمعي شيئا عني .

لك أن تعيشي كما تريدين وتزوجي من يليق بك ، لتفرحي وليباركك الله ولتكن
إرادتك يارب.

إلهي الغاضب عليّ ..

إلهي الذي لم أفهم حكمتك من وجودي ..

ارحمني يارباه..!

فيروز..أحترف الحزن والانتظار

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

أحترف الحزن والانتظار
أرتقب الآتي ولا يأتي
تبددت زنايق الوقت
عشرون عاماً وأنا أحترف الحزن والانتظار

عبرت من بوابة الدموع
إلى صقيع الشمس والبرد
لا أهل لي في خيمتي وحدي
عشرون عاماً وأنا يسكنني الحنين والرجوع

كبرت في الخارج
بنيت أهلاً آخرين
كالشجر استنبثهم فوقفوا أمامي
صار لهم ظلّ على الأرض
ومن جديد ضربتنا موجة البغض

وها أنا أستوطن الفراغ
شرّدت عن أهلي مرتين
سكنت في الغياب مرتين
أرضي ببالي وأنا أحترف الحزن والانتظار

" ليس بعد "

"أنا امرأة كالفهوة المرة .. عندما تتذوقني ستردني إرتشافي .

امرأة لا تخجل من أنوثتها .. ولا من طغيان جسدها .. ولا من تفتق الورد على شفيتها
ولا تتردد في إطلاق ناظرها لما تشتهيه.

امراه شهيه ذكية.. متمردة على نفسها وعلى ذكور العالم وإنائهم .

بي من الغضب ما يكفي لحرق الكرة الأرضية ، وبي من الحنان ما يكفي لعناق كل
يتاماها،وفي أقصى ظروف الحياة أرقص على جراحي وأغني .

لا أخجل أن أغني بصوتي النشاز أو أطلق الشتائم المخرجة ، ولا من كل ما يخجل
منه الآخرون.

لا أتجادل مع من يريد دفع الحساب ولا أتردد في قول الحقيقة بلا مجاملة .

أبوح بما يفكر به الجميع بصمت ، وأستطيع أن أقرأ عيونهم ، وأحس بما يشعرون .

أعرف المحرومين من ضحكاتهم ، وأعرف الكاذبين من ابتساماتهم التي تكشف لي
نفوسهم كالكتاب ، كإلهة لكنني بشر ، مغرورة ويحق لي أن أغتر .

لا أحد يستطيع أن يفهم ما أفكر به ، ولا ما أقصده ، ولا ما أريده .

أتعلم ما أريده الآن ؟

أريدك أنت ، بغرورك الغبي ودخان سجائرك العالق بك...وشفاهك المحروقة من
امتصاصها الدائم .

أريدك أنت بردودك التافهه ووجهك البارد كلما أخرجتك .

هل يمكن أن تفهمني أو أفهمك يوما ؟

كل ما أعرفه الآن أن شيئاً ما يخفق في داخلي بشدة كلما لمحت عينيك أو فكرت بهما

لن تستطيع أن تتحملني فما لدي أكبر من أن يحمله قلب رجل واحد .

فقط .. لا تتعجل

ولا تمت الآن.. ليس بعد "

يحمل الورقة المهترئة المطعجة بلونها الأصفر ويعتصرها بكفيه المرتجفين ، ينظر للفضاء بعينين باردتين لامعتين ، ينفخ الدخان من شفثيه الباكيتين و يعيد قراءة الرسالة من جديد ومرة تلو الأخرى .

وقد كان في كل مرة يقرأها يشعر بها وهي تنتفض من بين الأسطر وتعانقه ، تقبله بخفة بين عينيه وعلى جبينه ، وتضغط بشفثيه على شفثيه وذقنه ، تقبله بكل جنونها وصخبها وكأنما تعزف على أوتار قيثاره ، قيثاره قلبه ، فتسمعه النغم ، آهات حب وشوق وطرب، تشد شعره المسترسل وهو يبتسم لها متحولاً لأبله كبير وطفل غرير ويكتفي بالتلذذ بعزفها والتأمل في هذه الإلهة الأنثى ، العبقرية في سحرها، المجتهدة في عملها ، تنبت من بين عينيه الجامدتين دمة رقيقة وتجف بفعل الهواء البارد الذي يلفح وجهه صارخا فيه بقسوة مرعبة .

" لماذا لا أشعر بها هذه المرة " ييزق الدخان من فمه غاضباً ويتكئ على الجدار الحجري للجسر ، ويضغط براحتيه بقوة فتؤلمانه وكأنما كان يبحث عن ألم جسدي بسيط يطلق معه تراكمات من الألم لروح سئمت من العذاب طويلا ، ليجهش بالبكاء .

يبسط الورقة ويعيد قراءتها من جديد مرة تلو أخرى فتمطره الريح بضربات باردة في عينيه وأذنيه وشفثيه اليابستين وكأنما توغل في إيلامه عقابا على تحديه ووقوفه الصامد في وجهها ، يعتصر مشاعره ويعيد إجترار الذكريات البالية ، كانت تلك أول رسالة ورقية بينهما فقد كانت شديدة الحرص ألا ترسل له رسائل هاتفية ولا إلكترونية فكما تقول لا تعلم من قد يقرأها " فيها حياة وموت " تقول مازحه

"حقا ؟ كيف لإلهة أن تخاف من الموت ؟

بل كيف لإلهة أن تحب رجلا عاديا ؟ بل أقل من العادي؟ أقل بكثير

هل كانت حقا تحبني؟ أم كانت تتلاعب بي؟ وأنا تركتها بإرادتي تفعل ؟

هل خنتها ؟ أم خانتني ؟ أم خانتنا الحياة ؟

إن كانت إلهة حقا فلم لم تقدر على تحويلي للرجل الذي تريده ، الرجل الذي يجب أن يكون ليملأها ؟

هل أنا نقيضها ؟ ناقص عنها؟

تقول دائما أنها لا تخجل من شيء ، لكنني رجل أخجل من كل شيء، أخجل من أب وأم اعتبروني غلطة وبلحظات حب بهيمية أوجدوني وفي لحظة خوف رموني .

كيف لا أخجل من عار أحمله وأذنبه بمجرد التقاطي لأول أنفاس الحياة ، ومع أول صرخة بريئة من فمي الصغير وجسدي الطري؟ كيف لا أخجل من مجتمع لا يخجل أن يسميني لقبطا ؟

أمشي على الأرض كالنكرة كل شيء بلا قيمة ولا أهمية ولا عائلة ، تراني لومت هل ثمة من يذرف الدموع علي ويقيم مجالس العزاء؟ أم أوارى تحت الثرى وحيدا مجهولا خائفا وباردا كما أتيت ؟ وما قيمة الإنسان بعد أن يموت ؟ أم أن الموت هو العدل الكامل الوحيد الذي قد يصبرني على ظلم حياتي؟

وبينما لي أم في مكان ما تتزوج كالبهيمة وقد تربي أطفالا في عائلة تزعم أنها تغمرهم بالحب وتطعمهم قيم الشرف وتعوض فيهم ما سلبتني إياه ، وهي حقا لا تفقه من الأمومة شيئا ولا تعرف كم الوجد الذي ولدتني به ووهبتني له

أي أمومة تلك التي جعلتك تلقين بي وليدا؟ هل نظرت إلى عيني الصغيرتين الدامعتين هل ضممتني وقبلت جبهتي لتطفئي خوفا في أول يوم لي ، لا ليس في المدرسة كبقية الأطفال بل في الحياة برمتها ؟ هل حقا ضممتني؟ أسألك بالله يا أمي وقبل أن تتخلصني من عاري وشؤمي ، هل أمسكت كفي الصغيرين وقبلتيهما ؟ هل أمسكت أنا خنصرك بقبضتي الصغيرة متشبثا بك ومستمعا لهددتك وصوتك الذي ألفته مذ أن كنت بين حشاياك؟ هل أرضعتني من صدرك وجعلتني أشم رائحتك الحبيبة وأتذوق حنانك ، أن أشعر بدفئك وأنفاسك ؟ هل رحمتي بكائي حتى غفيت على صدرك مستكنا متنعما بالامن والحب ؟

كم من القوة امتلكت ؟ بل كم من القسوة والجبروت حملت حتى تقدمي روحي كقربان على مذبح شرفك؟ وكأنما سأخترني من الوجود بمجرد أنني لم أعد أمام ناظريك؟؟

وكأنما جريمته ستنمحي بمجرد أن تنتهي قصتي من كتاب حياتك بينما تنتقل لعنتك إلى كتاب حياتي الذي وقعته لي بالدم وملأته بالشقاء والألم .

بإله عليك ألا تذكرين ركلاتي بأقدامي الصغيرة وأنا أنبهك لإستعدادي للخروج لدنياك
ألم يردعك دوراني وحركتي الدائمة في أحشائك الممتلئة بي ؟

ألم تفكري يوما كيف سأبدو أصبي أم فتاة ، أشبهك أم أشبهه ؟

ألم تختاري لي إسما ؟ إسما حتى ؟!"

يستمر في تجرع البكاء الصامت وجلد ذاته المهترئة ، يمسح عينيه بطرف كفه ليتمكن
من إعادة النظر للورقة البالية أمامه محاولا قراءتها فتعصف به التساؤلات اللامتناهية
من جديد

"وأنت أيها المتباهي أيها الذكر الفحل الجبار ، انتهيت من فعلتك ونقلتني إلى جوفها
المظلم كقلبيكما ورحلت تغط في نوم عميق أعرق من سواد روحك ، ورحلت !

لا ألومك أبدا فأنت لم تكن سوى ذكر ولم تكن أباً ولن تكون ،أحاول أن أجد عذرا لكي
أبرر حبي لكما لكنني لا أجد ،فكل يوم أجتري فيه مرارة المهانة وكل قسوة أترعها
وكل ضربة و شتيمة موجعة وكل وحدة مظلمة وخوف، وكل مرة أركض فيها متسولا
الحب من أي حضن فارغ وكل ألم و ضياع ، تنهشم فيها روحي قبل أن يترك أيهم
أثره بجسدي .

وكل ليلة وقبل أن أنام غارقاً بالدموع وقبل أن يغفو الطفل الذي شاخ في داخلي أجدد
عهد الكراهية الذي قطعه لك ولها و للمجتمع الذي جعلني ضحية ، أدفع بلا رحمه
ضريبة الشرف الغالية ولدت نكرة وكبرت نكرة وها أنا ذا أعيش ولا أعرف لماذا ؟

حتى حبيبتي الوحيدة والقلب الذي أحيا روحي من جديد سلبت مني بفضلكما !

لماذا أنا هنا ؟ أتجمد في هذا الصقيع في بلد غريب وحدي ؟؟ بينما الذكر الذي قذفني
ينعم في بلده بملذات الدنيا بين أطفاله ونسائه وعائلته الشريفة؟ والأنثى التي أنجبتني
تعيش شرفها المزعوم بكل زهو ! من يدري من يكونا ؟

قد يكونا خادمه وسيدها ؟ أميرة ومكفولها ؟

أكانت طفلة بعمر الزهور؟ أم عجوزا غابرة ؟

هل كان غنيا أم طائشا سكيلا ؟ من علية القوم وأصحاب النفوذ؟

لا أعرف شيئا عنهما ولا أعرف من أكون .

لا أحمل منهما سوى ملامح تذكرني بخطيئة لم أرتكبها وأبوين لم أختريهما !

يعيد النظر إلى الرسالة التي بدأت تتمزق بين يديه

ينظر إلى آخر كلمتين

" لا تمت الآن .. ليس بعد " يجتر نفسا عميقاً حاراً

لطالما كان يشعر بها ويراها أمامه تبتسم وهي تقول له تلك الجملة في كل مرة يفكر فيها بالموت ضحكاتهما كانت كافية أن تهزم كل تلك الأفكار ، وصوتها العذب ينتشله من أعماق الظلمة كالسحر، لكن هذه المرة تبدو مختلفة تماما فهي لم تعد موجودة معه ولم تستيقظ من بين الأحرف لتعانقه لقد عاد وحيدا تماما كما ابتدأ .

وكانما قد فك عنه سحرها وزال تأثير طلاسما وحررت روحه من قيد تلك الإلهة الأنثى المحبوبة التي جعلته لأول مرة يحب الحياة .. ويحب نفسه .. ويعشقها .

يخرج من جيبه قنينة خمر صغيرة ، يتجرعها دفعة واحدة ، ويطلق نظره للسماء السوداء الغارقة في الحزن كروحه ، يتأمل الماء المتماذي بالظلمة أسفل الجسر، يفتح ذراعيه محلقا كطائر النورس مستقبلا الريح ومبتسما لها .

يسمع صوتها يطير في الهواء معه ومع رسالتها

" لا تمت الآن .. ليس بعد "

وعندما غنت له...

فيروز.. قالتلي المراية

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

قالت لي المراية
تغيرتي عليي
كبرتي مثل الحكاية
وشفناكي صبية

تاري البنت مخباية
مخباية بالمراية

بالأوضة الزرقا
فستان جديد
بعده بالورقة
عاسم العيد

والبنت ال عم تتساوى
وترخي شعرها وتتغاوى
وتتمايل رايحه جايي
وتطلع بالمراية

غيبي و لا تغيبني
ولا تقولي وين
مراية حبيبي
لون العينين

ولما قال لها يازغيرة
تحليتي وصرتي كبيرة
صارت تبكي الحلواية
وتضحك تضحك المراية

" الذاكرة تتقزز "

هكذا نحن كلما ابتعدنا نقتررب ، وكلما أحاطتنا وحشة الغربة غمرنا أنفسنا بأوهام بالية
نتجرعها كل مساء كجرعة دواء تسكن ما بأرواحنا من ألم

ذلك الألم الذي خلق معنا فأبكانا صغارا وظل مغمورا في أعماق إنسانيتنا ، من ضعفنا
وانكسارنا ومن هشاشة نفوسنا وتوهان عقولنا وتمرد شهواتنا على أنفسنا ، خذلان
الأحباء وقهر الأعداء ، نظرات حقد واستهزاء ، كلمات جارحة عبرت على مسامعنا
فابتسمنا ، وأخرى خنقت حناجرنا فأضحكتنا ، حب فشل أو حلم لم يكتمل ، غال لم يبلغ
رضاه أو عدو لم نتمكن منه ، كثيرة هي الأسباب التي تجعلنا نبكي بحرقة .

وحدنا ونحن ننتظر في محطة القطار والهواء يلفح وجوهنا ويجفف دموعنا ، وبين
أحضان وسائدنا نقترف الدموع بلا موارد ، وفي مجالس العزاء حيث تغتفر الدموع
ولا تعرف الأسباب ، وتحت دش الماء الدافق من بين أعيننا ، وأمام فلم ساذج نذرفها
ولا نعلم لماذا !

بل نعلم ولا نريد أن نبوح لأنفسنا ولا أن نخبر ذاكرة الحزن في قلوبنا ، فنطفئ كل
شيء بلحظة وندفن المولود قبل أن يصرخ ، قبل أن يبوح وقبل أن ندرك أننا نغوص
في ظلام أرواحنا ونبتعد ، نبتعد عنا كثيرا كثيرا جدا .

أظن أن عمي هو أسوأ رجل في العالم وابنه هو أسوأ ابن لأسوأ رجل في العالم ، عدا
عن دمامة روجيهما التي تتجلى في مظهرهما المظلم الكئيب ، فهما ثقيلان طينة بشكل
لا يوصف ، كنت أتساءل دوما كيف تحتمل الأرض هذه العنجهية والثقيل ولما لم
تبتلعهما بعد ؟

حاول ابنه خطبتي مرارا بالتلميح والتصريح الفج القبيح ، وكان أبي دائما يظهر
بصراحه عدم رضاه عنه ولا عن زواجي به .

بينما كانت أمي تتذكر جيدا ما حدث بيني وبين عمي ، ولم تشجع يوما على الزواج
من تلك الأسرة المقرفة ، ولاتزال على مر السنين ذاكرتي تتقزز كلما تراءت لي
لمساته لشفتي وخصرتي ومؤخرتي ، فأشعر بالغثيان كلما ألتقت عينيه بعيني .

كنت حينها في الثالثة عشر من عمري غضة متفتحة كالوردة في بستانها ، تنساب بهجة الحياة من عيني وشفاهي الضاحكة وينبثق نهديّ كالعصفورين ليحلقا في سماء الطفولة الأنثوية الغضة ، كنت أنثى بعقل طفلة وببراءة مجنونة فانتة .

في منزل جدي الفسيح كانت تسكن عائلتنا الكبيرة والمكونة من أعمامي السبعة وزوجاتهم وأبنائهم ، نشأنا سويا نحمل ذات الأنوف والأعين وذات الأصوات المخنوقة والعواطف المكبوتة ، نتقاسم كل شيء حتى الكره ، ونتظاهر بالحب والألفة حتى ازدادت الأنفاس وكثر المواليد المتشابهون فاختلفنا ، وضاعت الأنفاس ببعضها فخرج أعمامي كل إلى بيته المنفرد ، عدا عمي المشؤوم .

يعمل جميع أعمامي بمناصب عليا في الدولة ، بينما أبي كان تاجرا كوالده ، أما أبناء عمومتي فلا يختلفون كثيرا عن آبائهم لا في الفكر ولا حدة الملامح وبدادة التصرفات والطباع والتناقض وضحالة الفكر .

منذ أن بلغت ريعان الأنوثة لم يعد هناك احتكاك مباشر بيني وبين أبناء عمومتي بالكاد كنت أراهم بالصدف أو بالأعياد عندما يجتمعون لتحية والدي ، وكان عمي المذكور هو النقطة السوداء المنتنة في حياتي كلها وهو من فتح لي بابا لم أكن مستعدة لولوجه ولا معرفه خفاياه .

في ذلك اليوم الشؤم كنت أرتدي فستانا أزرقا واسعا مزركشا بالورود الحمراء ومربوطا بشريط أحمر بدقة وعناية من الخصر ، ألعب في الظهيرة وحدي بهدوء في حديقة منزلنا الخلفية بينما يلفح هواء ديسمبر البارد خديّ وشفتيّ الورديتين فتزداد حمرة ويلعب بخفة شعري العجري المموج فيتطاير فرحا .

اقترب كاللص متسللا ، مسح رأسي وهو يردد مبتسما

- فتاة جميلة مطيعة

بينما امتدت يده الأخرى إلى مكان أبعد !

- هل تحبين عمك؟

ابتسمت بحيرة وأشرت برأسي بنعم

مرر يده من رأسي إلى ظهري ثم مؤخرتي ضغطها وهو يردد

- وهو يحبك جدا جدا

كانت عيناه تلمعان وهو يقترب بأنفاسه العفنة مني

- طيب أعطيني بوسة

قال بصوت مرتجف وهو يقترب برأسه إليّ ، أرجعت رأسي متقززه للخلف وأنا لا أفهم شيئا إلا القرف ! حزنني بقوة مهولة تنكسر لها أضلاع فتاة غضة بين ذراعيه القويتين ، معتصرا مؤخرتي وهو يمتصني بعنف ، أفلت منه وقلبي يرتجف وجسدي يرتعش ، أمسكني من معصمي والهلع يبدو في ناظريّ

- لا تخبري أحدا والا سأذبحك كخروف العيد

وأشار بيده كالسكين على رقبتة وعينه المرعبتين تدوران في محجريما

ركضت مسرعة مذعورة كالمجنونة بل أكثر، فالיום كنت قد أخذت أول درس في خطايا البشر ! لكنه كان مبكرا ، مبكرا جدا ! ومن اليوم صرت أفكر كثيرا في كل خروف يذبح يوم العيد !

قفزت على سريري وغرقت في بكاء عميق ونشيج خائف ، وعيناه المرعبتان قد علقت في ذاكرتي ، لم أكن أعلم حينها أن طفولتي قد انتهكت وأن هذا الشبح المقرف سيظل يطاردني للأبد ، الغريب أن أمي حينما لمحت عيوني المفجوعة الحمراء وأخبرتها بما فعله عمي وكيف أنني أشعر بالخزي والسوء لخطي لا أكاد أفهمه ، انهالت علي بنظرات احتقار حارقة وبختني حتى اقتنعت أنني أنا الجانية وحذرتني بغضب من مغبة الجلوس أو اللعب وحدي أو الحديث عن هذا الأمر مع أي كان .

وبقدر ما كانت تكن العداء والبغض لهذا العم لكنها لم تتجرأ قط أن تفتح فمها بكلمة واحده لأبي ، واستمرت بملاحقتي ومراقبتي في فترات الظهيرة وغفوات الأهل واستمر هو بملاحقه غفلاتها عني واقتناص كل ما يمكن اقتناصه كلما حانت له الفرصة ليتقلع ورده جديدة من تلكم الفتاة البرية والأرض البكر الحلوة ، وفي كل مرة كنت أشتكي كان الخناق يزداد ضيقا علي وتحسب خطواتي وأعاقب كالمذنبه ولم يكن كوني ابنة أخيه ولا لأنني بعمر بناته لم يكن ذلك رادعا كافيا له ، لكن نظرة واحدة من والدي

عندما كشفه فجأة وهو يتلمسني وأنا أبكي بصوت مكتوم محشورة في زاوية الغرفة نظرة واحدة فقط كانت كفيلا أن تنهي تلك الجريمة التي لا تليق بسنه ولا بلحيته الكثة .

كانت تلك الحادثة سببا كافيا لطرده من المنزل نهائيا ، وليحل السلام على قلبي المرتاع من جديد ، قلبي الذي هتكت براءته ومزقت حلاوته من وحش مريض بلا قلب ، اقترب أبي مني بعد أن غادر الوحش مطأطأ الرأس واحتضنني بعيون دامعة مكسورة ، دموع أب حزين عجز عن حماية براءة طفله ورءاها تنتهك أمامه ومن أقرب الناس له ، دخلت في نوبة بكاء يكشف له معاناة سنين من القهر والتحرش والخوف .

- لا تخافي يا ابنتي.. وأنا معك

احتضنني فكانت كلماته الرقيقة كالبلسم الذي داوى جروحي ولماسته الحانية كالماء البارد الذي يطفئ حريق المشاعر، فشعرت وقتها بالأمان الذي فقدته طويلا فقد فعل ببساطة ما لم تقدر عليه أمي .

لم يتمكن عمي من لمسي مجددا لكنه لم يتوقف يوما عن شتمي وتوبيخي كلما سنحت له فرصة ، فحتى إن لم يكن قادرا على الوصول إلى جسدي ، فقد كان قادرا على جعلني أشعر بالسوء من بين فتيات العائلة ونعتي بأسوء الألقاب و إطلاق الإشاعات ضدي .

وقد كان في كل مرة ينجح في جعل أمي تحبسنني في المنزل أو تعاقبني بمنعي من الفسحات القليلة التي كنت أحظى بها .

- أنت أصلا لست ابنتنا !

كان يردد دائما هامسا متلفتا حتى لا يسمعه أحد غيري إمعانا في أذيتي وقهري كلما رأيته ، ولم يكن كل ذلك ليهمني فيكفي أن لي أباً نظرة منه تنقذني وابتسامه منه تحييني .

فيروز.. سألتك حبيبي

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

سألتك حبيبي .. لوين رايجين؟

خلينا خلينا

وتسبقنا سنين

إذا كنا ع طول

التقينا ع طول

ليش منتلفت خايفين

أنا كل ما بشوفك

كأي بشوفك

لأول مرة حبيبي

أنا كل ما تودّعنا

كأنّا تودّعنا

لآخر مرة حبيبي

قللي حكيبي

نحنا مين

وليش منتلفت خايفين

ومن مين خايفين.. من مين

موعدنا بكرا

وشو تأخر بكرا

قولك مش جاي حبيبي

عم شوفك بالساعة

بتكّات الساعة

من المدى جايي حبيبي

ويادنيي شتي ياسمين

ع اللي تلاقوا ومش عارفين

ومن مين خايفين.. من مين

سألتك حبيبي ..

" ليس لها نهاية "

في مطعم فاخر حيث الأضواء البنفسجية تسطو على كل شي فيبدو موحدا بلون مشع ، لذيذ و هادئ و الموسيقى بدفء أنفاسها التي تسحر الأرواح وتعلو بها لعالم كامل جميل ، وحيث كل شيء يبدو مثاليا ، رائعا ومبدعا ونحن نتألق متمازجين كزوجين متناسبين نمطي صهوة الفرحة الجامعة ونغرد بحلم السعادة .

وصل الجرسون بلباسه الذي يبدو نظيفا مهنديا ونظراته المبطنة باللف والفضول تصفحت القائمة التي أحفظها بسرعة وطلبت العشاء بثقة على ذوقي كما طلب مني، له حساء البحريرات ولي معجنات ومقليات، سلطة بشكل مشوق وطبق رئيسي مشترك من اللحم والدجاج المطهو بالطريقة الصينية الفريدة ونشرب عصير الليمون، أخبرت الجرسون المتعجل بلغتي الإنجليزية الأنيقة أن هذه كل شيء ، والحولى بعد العشاء ، بينما ظل عبدالله يرمقني طوال الوقت بنظرات معجبة خاطفة وخجولة يشيح بها بعيدا كلما التقت عينانا وبصمت لذيذ .

دلف خارجا يحمل قائمة الطعام وطلباتنا البسيطة وأغلق خلفه الستار، فخفق قلبي بقوة، خفق قلبي لأول مرة نكون فيها سويا وحدنا نتبادل النظرات المباشرة لا الهمسات على سماعة الهاتف ، وأشم بحب رائحة عطره ، جسده وأنفاسه ممزوجة برائحة دخانه ، وأحس بلذاته قربة فيذوب قلبي معهم وتترسخ كل ثانية معه في ذاكرة قلبي .

أول مرة أجلس بجانبه لا تفصلني عنه المسافات ، لا إنسان ، لا جدار ، لا ورقة ولا كلمة ، متفرغة بالكامل للنظر إليه وتأمل ملامح وجهه الحبيبة ، وحفظ تضاريس جسده ، أول مرة أسمح لعيني أن تقترب مني وتطوف حول جسدي وتثبت في عيني بلا خوف ولا خجل ، ونرى الأسئلة المترددة التي كنا نسألها في أنفسنا تجيب عن نفسها بلا أدنى كلمة ولا ذرة شك ، فليس من رأى كم سمع ! وليس من مس اليدين كم رأهما بين أحضان كتاب ، وليس من تنفس الكلمات كم نطقها خلف أسلاك الهاتف .

في نظرات العيون كل شيء مكتوب ، لذة الحب واشتهاء الجسد ، الشوق للعناق والمشاعر المختلطة الغامضة ، الضعف والقوة ، الشقاوة والتمرد ، والفقد والحزن ، كلها تختزل نفسها في نظرات العيون وببريقها ولا شيء يمكن إخفاؤه.. أبدا

أول مرة أرى ابتسامته الحلوة وأرى ضحكته تخرج من قلبه جميلة كما كنت اسمعها على الهاتف بل أرق ، تزينها غمازتيه العميقتين فتأسران قلبي كلما ابتسم .

أول مرة أشعر منه بالخجل وهو يتأمل ملامحي ويلق على اختلاف مظهري عن قرب ، ويمتدح الشامة على وجنتي كما اكتشفت الغمازة في ضحكته .

لذة البدايات لا يمكن وصفها فهي الأجل والأعمق ، تبهر أرواحنا باكتشافاتها الفريدة فننتشي ونسعى للمزيد ، قفز فجأة من كرسيه وبيده علبة حمراء مخملية وابتسامة جميلة مترددة ، كان يتحرك مسرعا بلا وعي همس بأذني ..

- أغمضي عينيك

مد يديه المرتعشتين ليغمضهما برفق، فابتسمت خجلي وأنا أشعر بأنفاسه القريبة جدا ، وأختلس النظر لعقد ذهبي ضخيم يلمع بين يديه الضخمتين المزينتين بعروق عريضه قوية ، رفع شعري الطويل المموج بيديه وانحنى على رقبتني وأقترب بأنفاسه الدافئة

ألبسني العقد بحرص وأنامله تلامس رقبتني وأنا بالكاد أتنفس ، وببطء المبتدئين ألبسني أقراط الأذن ، ورعشة مجنونة تجتاح أوصالي كلما لامس جزءا آخر من جسدي وكأنما تحتفل خلاياي راقصة لهذا الإقتراب العابت وترتعش !

سحب كفي المشدود إلى صدري ودس الخاتم في بنصر يدي اليمنى وقبلها

- أفتح عيني

قلت له بشقاوة عنيدة

- لا لا انتظري

كان الإنتظار طويلا شاقا ممتعا كسرته شفثيه الرطبة وهي تقبل ما بين عيني

وبهمس قال

- افتحي عينيك الآن وكأنني لم أر هديته ، وكأنني لم ألاحظ رجفته ولا ابتسامته المترددة ، لم أكن أفكر ماذا سأفعل وكيف أرد فلم يكن هناك وقت للتفكير ، فقبله الجبين ما بين العينين هي أئمن وأغلى قبله قد يهديها رجل لفتاته وهي عربون حب خالص لا يمكن وصفه .

قفزت إلى حضنه مبتهجة به مسحورة برجولته ومفتونة بقربه الفريد ، تعانقنا طويلا ،
طويلا جداً حتى فقدنا الإحساس بالزمان والمكان ، وضحكت كثيرا على دموع
غمرت عينيه حاول جاهاذا إخفاءها ، أمسك كفي الأيمن وهز الخاتم بأصبعه قائلا

- أنت لي

نظر جادا في عيني ، وعدنا لعناق أبدي عميق وكأنني ما خلقت قبل هذا العناق بل
ماخلقت إلا له ، وكأنما أكمل بجسدي المتلوي حول عنقه بحب، جسده الفتى وأملأ
فراغ روعي بروحه التي باتت تتخللني في عناقه العظيم ، افترقنا عندما حضر الطعام
برائحته الطاغية وابتسامة حامله المغترة ، لم تعد هناك أي شهية للأكل فقد كنا
جائعين لنوع آخر من الغذاء ، غذاء عاطفي لقلبين عطاشا وجوعى للحب .

أردت أن أشكره بطريقته فطلبت منه أن يغلق عينيه أيضا ، وبعد أن أبعدت كل
الأفكار عن العواقب المخيفة و المترسبة في رأسي ، وكل درس في الشرف تعلمته من
أمي وكل كلمة تحبب الحب قد قرأتها أو سمعتها ، وكل عيون الآخرين وأحكامهم ،
فرغت عقلي وقلبي إلا منه ، من حبه ومن روحه الخاضعة لي بالكامل .

أمسكت ذقنه بكتا يدي حتى حضنت رأسه المحبوب بكفي ، اقتربت منه حتى لامس
أنفه أنفي ، وأخذت أستنشق أنفاسه وأبتلعها بعمق ، أنفاسه الغالية القريبة الحبيبة ثم
رحلت أنزل إلى شفتيه وقبلته ولأول مرة قبلة طويلة عميقة و محيرة ، كالزلال
ارتعش لها قلبه وقلبي ، وآه من قلبه ، شعرت به يرقص ويتهادى كالارض تمطر بعد
موجات الجفاف ، اخضر ذلك القلب المسكين وزالت منه كل وحشة !

فتح عينيه قبل أن آذن له ، وكأنما قد سرت في جسده صعقة كهربائية فتعطل العقل
وضاع في غياهب قبلة مجنونة ، يا الله ..! كيف للقلبات أن تفتح أبواب القلب بهذه
السرعة وتجلي الأسرار بهذه العبقرية الفذة ؟ وكيف لتلاقي الشفاة والألسن أن يجمع
شتات القلوب ويصهر الأرواح بلذة متناهية ؟ بل كيف لنا أن نتوحد وننضج سويا
وبثوان معدودة ونخلق قلبا واحداً من قبلة واحدة ؟!

هكذا هو الحب ، كالجنون يسلب اللب ، وهكذا هي سكرة القبل ليس لها نهاية!

سلمت نفسي لقلباته التي انفلتت كالمارد من قممها وذبت!

كلمات

سعيد عقل

ألحان

محمد عبد الوهاب

مُرِّي يا واعداً وعدا مثلما التسمه من بردى
تحمل العُمر تُبدِّده آه ما أطيبه بددا
رُبَّ أرضٍ من شذىً وندىً وجراحاتٍ بقلبي عدى
سكنت يوماً فهل سكنت؟ أجملُ التاريخ كان غدا
واعدي لا كنت من غضبٍ أعرف الحب سنىً وهدى
الهوى لحظُ شاميةٍ رقّ حتى قُلتُهُ نَفَدا
هكذا السيف ألا انعمدت ضربةً والسيف ما انعمدا
واعدي الشمس لنا كرهٌ إن يدُ تتعب فنادر يدا
أنا حبي دمة هجرت إن تُعد لي أشعلت بردى

فرصة حب

لا شيء في مدينتي يشجع على الحب ، لاشيء يثمر في بلادي سوى النخلات الصابرات على الحر والعطش ، قد يسمح لأي فتاة في العالم أن تحلم بفارس الأحلام الذي يقبلها قبلة الحياة وينقلها لعالمها الوردي، يسمح لها أن تراه وتتعلق به ، تخجل منه ، وتواري خجلها بابتسامة وله أن يقترب منها خجلا بوردة صغيرة حمراء ولهما أن يربيا ذلك الإعجاب حتى يكبر حبا ويولد كقصة زواج لو نجحت لتتوج حبهما .

أما هنا فأقصى أمني البنات أن يطرق أبوابهن الخطاب الغرباء على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وألوانهم ، والمحظوظة منهن قد يسمح لها برفض من لا يروقها ، وفي الغالب فإن كل فتاة تحاول أن تقتنع نفسها أن ذلك الغريب الذي لم تلتقه من قبل هو الحبيب وأن تلك الملامح التي لم تألفها هي ما ستراه طوال حياتها وما ستنقله لأبنائها وأبنائهم .

وتلك الرائحة المحيرة وذاك الصوت المريب و الضحكة الشاذة هي ما سيلتصق بها ويصنع رائحتها وصوتها وضحكتها ، عليها أن تقتنع أن نظرة واحدة لا تتعدى نصف الساعة لغريب يطرق الباب ، كافية لتقرر حياتها ومستقبلها كافية لتدرس هذا الغريب وتتكيف مع طباعه ، كافية لتغرق في بحر حبه بل لإرضاء ملذاته ، عليها أن تقتنع أنها ستنام معه على نفس المخدة ، رأسه برأسها وجسدها بجسده ويدها تعبثان بمكنوناتها التي طالما حافظت عليها من كل عين ومن كل غريب .

نعم هو هكذا الحب لدينا ! عدا " الحب الآخر " القابع في دهايز الظلمة المطارد بعيون المسؤولين ، والمتعرض للمخاطر والأكاذيب والخداع والدجل ، والعواطف البدائية المتشنجة التي يحسبها الضمان ماء وما هي إلا نداء الغريزة البحتة .

فلا للفتاة أحقية الاختيار ولا هوحى مطلقا للفتى .

و كل ما نعرفه عن منظومة العواطف ولعبة المشاعر، أن تبقيين بعيدة عن الرجال من غير محارمك جاهلة لطباعهم طوال عمرك ، ثم يزجون بك في حضن رجل غريب دفعة واحدة فتضيعين ، و تبقى بعيدا عن كل النساء وحنانهم ومكرهم ثم تجد نفسك فجأة مطالبا برعاية أنثى لا تعرف عنها شيئا أعمق من تقاسيم جسدها فتغرق .

إن القرب من الجنس الآخر لهو لغز كلعبة الكلمات المتقاطعة تحتاج لحلها لكثير من الصبر والعشرة ولسنين من الخبرة والمداورة ، وهو قرب يختلف كلياً عن أي قرب، فلا هو قرب أب ولا أم ولا شيء يشبه علاقة الأخوة أو الصداقة ، قرب من النفس بسبر أغوارها وفهم دهاليزها والقدرة على استيعاب المصدر الموجه للكلمات عندما تنتثر من أفواهنا كما الرماح ، وفهم المحركات لتلك العواطف المشحونة التي تملكنا ساعات الغضب ، واكتشاف الأراضي البكر في أرواحنا والتي لم نطوئها بفكر ، فكثيرة هي الأمور التي لا نعرفها عن أنفسنا وقد نتفاجئ كثيراً لحد الذهول عندما تخرج الى السطح في اقتراباتنا مع الآخر .

ففي القرب نتعري بالكامل ونكون نحن كما لم نعهد أنفسنا قبلاً ونتعلم أبجدية أجسادنا وقلوبنا وأرواحنا ، نحلل رصيد السنين المترابكة من طفولتنا وحتى أولى القبلات، فلكي يعيش اثنان سوياً بتوافق تام لا يكفي ولن يكفي أي تعارف سطحي وحتى الأعماق قد يسفر عن مفاجآت تأتي بها الأيام ، فألغاز النفس الإنسانية تتكشف مع الزمن لكنه على الأقل قد يمهد للتوقعات أن تنبني ، وللروح أن تتريض قبل أن تصدم ، وفي الحقيقة لا معرفة للإنسان قد تكفي لفهمه .

بينما هناك الفريق الآخر من الفتيان والفتيات الذين اختاروا العنوسة بديلاً لحب مزيف ومنظومة تكاثر وتناسل وإرضاء جسدي ليس إلا ، وهناك من يركبون أهوال مصائرهم وإن تهادى بهم أو غرق ، ويفعلون كل ما يمكن فعله ليحصلوا على ما يظنونهم حقيق به وهم أهل له .

نعم لا زلنا في القرن الواحد والعشرين نتجادل ونتقاتل حول هويتنا الجنسية ، ولم ترتق أفكارنا حد السرة والركبة ، نفتسم كل شيء تبعاً لهويتنا الجنسية .

زواج للنساء وزواج للرجال ..

مقاعد الرجال ومقاعد النساء ..

مدخل للنساء وآخر للرجال ..

ولا زلنا نتبادل الاتهامات كحزبين مختلفين منفصلين ، ولا زلنا نشير بأصابع الخيانة والدونية والتحقير، نعم البعض يصفنا بناقصات العقل والعورة ، والبعض يقول شاوروهون وخالفوهون .

وهناك من تتهم كل الرجال بالخيانة والعبودية لشهواتهم وبلا استثناء ، وكأننا لم نخلق جميعا بشرا لا تفاضل بيننا إلا بما تصنعه أيدينا ولا فضل لأحد منا على الآخر يعود لجنسه ولا جنسيته فكلنا أجساد ضعيفة وقلوب متعبة وأرواح تبحث عن الخلاص.

نعم ليبيكي الرجل فله قلب ولتحكم الأنثى فلها عقل .

الصدفة هي ما دفعت بي في طريقه وجعلته يصطدم بي ، وتسقط الكتب من يدي وتعلق رائحته في قلبي، كنت وقتها غاضبة جدا ونعته بالغبي الأبله بينما كان مرتبكا مبتسما قويا ، طوله الفارع حينما اعتدل يسلمني الكتاب الذي أسقطه أدهشني وأخافني ودفء غامض سرى في أوصالي مع رعدة جميلة كالكهرباء طافت حول قلبي .

تناولت الكتاب من يديه غاضبة وقد انهال عليّ بكلمات الإعتذار فلم ألتفت له ولا عاينت ملامحه ، لكنه ما أن مال عن وجهي حتى اقتنصت الفرصة لرؤية الوجه الذي يحمله هذا الجسد الفارع القوي ، ودهشت لإعجابي بتفاصيله القوية وفكه العريض وعينيه اللامعتين الحادثتين ، وحاجبيه الكثين الملتصقين بغموض، التقطت كل التفاصيل وحصلت على صورة واضحة للأسمر الجميل في مخيلتي الخالية من رجل مثله ، فقد كنت قد حملت جينات الرفض وخبرة الكراهية للرجال "الذئاب" كما خيلوهم لي ومهما ترقيت عن كوني نعمة فهم لم يزالوا ذئابا ولو في عقلي الباطن ، فكنت أظن بهم السوء وأصد من أي محاولة اقتراب بغض النظر عما تطويه من نوايا لكنه كان مختلفا ، مختلفا جدا ولم تلق به ملامح الذئاب الغادرة .

عندما اتجهت لأحاسب عن كتبتي كان يقف خلفي مباشرة ، أكاد أشعر بعيونه تخترق جسدي ، مددت يدي لأدفع الحساب لكنه و بصوته الأجلج الدافئ قال للمحاسب

- خليكها عليّ .. اعتبريها اعتذار مني يا أختي .

نظرت له نظرة سخرية واستحقار وربما غضب عارم على كلمه أختي

- عفوا أخي .. لا أسمح لك .

رمى النقود على الطاولة ومشيت بتكبر وغرور، وأنا أنظر بطرف عيني وأتحسس عيونه المغروزة خلفي .

كان لقائنا الأول خاطفا ، لكنه ظل يراود خيالاتي وظللت ابتسم على منظري الغاضب وابتسامته الجميلة ، ومضى الأمر عاديا جميلا و مبهجا ، كانت المكتبة هي ملاذي الدائم ومكان استجمامي كلما ضاقت بي دنياي ، فمشاكل الأهل لا تنتهي ، ووسائل الترفيه محدودة وضيقة قد لا تتعدى مطعما راقيا أو أغنية صاخبة نرقص حولها كالهنود الحمر .

بينما بين أرفف المكتبة أضيع وأختزل كل مشاغلي ، وأنشغل في أفكار الكتاب الذين يتلاعبون بالأحرف ويضيعوننا في متاهات مشاعرهم وعمق تجاربهم ، رأيت كثيرا فقد كان زبونا دائما مثلي ، لكنه لم يحظ مني سوى بنظرة إستهزاء وسخرية ، بينما أحظى منه دائما بابتسامة حلوة تكشف عن روح جميلة رقيقة ومتعبة ووجه بشوش يلتصق في مخيلتي ليسعد بقية يومي .

في قرارة نفسي كنت أصدق أن الرجال يحبون التمتع ، ويعشقون تتبع الأمنيات المستحيلة ، يحبون الشقاء في سبيل ما ييغون ، فاذا ما وصلوا لمرادهم سكنوا ! وهدأت عواطفهم ، وانطفأت نظرات التحدي اللامعة في أعينهم ، وهم دائما ما يرفعون رؤوسهم للجماليات العنيدات وما أن يحصلوا على حبهن سيتركوهن .

فالمراه الجميلة تشعر الرجل "العادي" بالغيرة ، تشعره ببساطة بضعفه وقلة حيلته فجبروت عينيها يجبره أن يتنازل عن كبريائه الذكوري العقيم ، وطغيان نهديها يحيله لطفل كبير لا حول له ولا قوة .

لذلك "العادي" سيختزل الطريق وإن عشق الجميلة ، لكنه سيحضن البسيطة في بيته ، تلك الأنثى التي لا تشكل أي تحدي له ، لا لجسده ولا لقلبه ولا تطيح بكبريائه الزائف ولا تمتلك روحه ولا حتى تحير عقله .

أما تلك المرأة التي يحملها كل الرجال في مخيلتهم ويعرفونها جيدا ويدركون ماذا قد يفعل بهم قربها ، يبتعدون عنها ، بعدا قريبا .

تلك المرأة التي لا يستحقها الرجل "العادي" ، بل الرجل "الشجاع الواثق " الصادق مع قلبه وعقله والذي يعرف ماذا يريد جيدا ويسعى له بلا خوف ولا تردد ولا أعذار .

قلوبهم مندفعة منيعة مبدعة يتدفق منها حب صادق للنفس وللمعشوقة يعرفون أنثاهم ويولجونها قلوبهم ، ولا يخرجونها أبدا فلا تهزم أبدا ولا تموت إلا معهم .

مرت أيام طوال لا أدري هل كانت أسابيع أم أشهر ، حتى إنني لم أعد أدري إن كنت وإياه نتعمد المصادفة في نفس الوقت وفي صف الكتب ذاته مدعين أن صدفة القدر هي وحدها من يجمعنا وبتوقيت دقيق، وما أن أضع الكتاب في يدي حتى يقلدني ويأخذ مثله ويستمر في استفزازي بصمت .

أشار على مرة معلقا على كتاب كنت مندمجة في تصفحه وقراءته فرددت دون شعور ، وعندما انتهيت رمقته بالنظرة إياها التي إعتادها مني فخرجت منه ضحكة مجلجلة أخرجتني ، وفي مرة ما أتيت كعادتي للمكتبة لكن الأسمر الطويل لم يظهر كعادته أصبت بالخيبة وعدت للبيت بلا كتب ، وفي المرة التي تليها لم أراه فأخذت أبحث بين الممرات وأتجول بناظري بين الكتب متلهفة لرؤية المشاكس الذي لا أعرفه .

في المرة التالية توجهت للمحاسب بحزم مغشوش وبينما كنت أسأله عن رجل طويل أسمر كان يحضر دائما قاطعني صوته الأجش

- تقصديني... أختي..؟

استفزتني أختي كما تفعل دائما منه لكنني تجاهلته تماما ، التفت نحوي وهو يلتقط كتابا من الرف ويتحدث بهدوء

- لو يهملك أمري فاسمي عبد الله وأتمنى أن أتعرف بك أكثر

وضع كرته داخل الكتاب وأعادته للرف ورحل بجلال ، أمسكت الكتاب بيدي المرتعشة وأنا أتلقت حولي أخذت البطاقة ودسستها في الحقيبة ومضيت في طريقي مسرعة أتخبط ما بين لذة إشباع الفضول ومتعة الأسرار التي تخالف المعهود وتلامس الخطايا

"عبد الله العبد لله مدير تسويق في شركه كبرى" آها لذلك استطاع تسويق نفسه عليّ قلت في نفسي مبتسمة وأنا ألاعب البطاقة بين أصابعي لن تنطلي ألعبيه "عبد الله الغبي"

بينما كنت قادرة على الإتصال به فورا ومعرفة كل شيء إلا أنني آثرت أن أجعله ينتظرني وبكل غرور يخرج أمامي لأنني لن أتصل عليه ، كان شعور أنثويا بحثا

محملاً بالغيرة والكبرياء والإعجاب والانكار يمنعني من البدء أو التصريح بإعجابي المتبادل .

غاب كثيرا عن المكتبة وودت لو أتصل عليه لأطمئن عليه .

نعم أصبحت أريد الإطمئنان أنه بخير، عبد الله الذي لا أعرف عنه شيء لكن كبريائي المدهش كان يمنعني ، في المرة التالية وجدت ظرفا سلمني إياه المحاسب وكأنما بدأ يفهم اللعبة ما بيننا ، كانت رسالة قصيرة.."أنا عبد الله العبد الله أحب القراءة وأفكر بالموت كثيرا ..من أنت...؟ "

لم تشبع رسالته غروري ولا فضولي واستمررت "مستمتعة بإصراره" في تجاهل كل رسائله المتشابهة التي كان يطبعها ويرسلها لي عن طريق محاسب المكتبة ، لكن هجرانه وإصراره أثمر معي أخيرا فاشتقت له ، حيث توقف عن الإرسال ولكن دون يأس .

نعم اشتقت لعبد الله الذي لا أعرف عنه شيئا ، حقيقة واجهت بها نفسي المترددة العنيدة وتغلبت حينها على كبرياء أنثاي ، وبلحظة كنت أخط رسالة طويلة وأغلفها بحرص وأسلمها للمحاسب المدهش وفي قرارة نفسي أعرف بلا شك أنها ستصل لرجل غير عادي فمن سيحرك قلبا قلبي لن يكون رجلا عاديا أبدا ، خطت بيدي رسالة أعبّر فيها عن تعجرفي وكبري وعن كل ما يمكن أن ينفر رجلا مثله من فتاة مثلي لكنه كان يقرأ بقلبه ويرى بروحه ما لم أراه أنا في نفسي ومن تلك الكلمات أضاء حبنا وتوهج فكننت قلبه وروحه التي يحيا بها وكان قلبي الذي أنبض به .

صدفة؟ لا ليست صدفة فالصدف تتكرر أماننا باستمرار لكننا لا نقتنص منها إلا الفرص!

وعبد الله كان فرصتي للحب ... والحياة.

فيروز .. كنا نتلاقى من عشية

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

كنا نتلاقى من عشية
ونقعد على الجسر العتيق
وتنزل على السهل الضبابية
تمحي المدى و تمحي الطريق

ما حدا يعرف بمطرحنا
غير السما و ورق تشرين
ويقل لي بحبك أنا بحبك
ويهرب فينا الغيم الحزين

يا سنين اللي رحتي ارجعي لي
ارجعيلي شي مرة ارجعي لي
وانسيني ع باب الطفولة
تا أركض بشمس الطرقات

يا سنين اللي رحتي ارجعي لي
ارجعيلي شي مرة ارجعي لي
ورديلي ضحكات اللي راحوا
اللي بعدها بزوايا الساحات

بتذكر شو حكيوا عليي
لما نظرت وإنت نسيت
وصار الشتي ينزل عليي
وإجا الصيف و إنت ما جيت

قلاع الورود

حزينة أنا كفنجان قهوة برد ولم تمسه يد

كقلب العذراء اذا انكسر.. كسحابة سوداء تنهمر .. ليس لحزني حد

تعبت من مشاعر الخذلان والخوف

فراشة أنا لحتفها تطير ، وترقص رقصة الموت باستهتار

حزينة أنا ... محروقة الفؤاد ، أكاد أشم رائحة الدخان في داخلي وأسمع أنين مشاعري المحطمة.

أي رجل ذاك الذي يرحل ويترك الخراب حيثما حل ؟ أي بلاء أنت يا حبيبي ؟

أي مصيبة حلت على فؤادي ، فتركته حائرا متخبطا .. خائبا

يا لقسوة الرجال إذا مارحلوا

يرحلون راكضين رافعي رؤوسهم لا يعبئون بالخراب من خلفهم ، في قلوب كسرت نبضها لتدفي بردهم ، لكن وعندما يرحل الشتاء يطفئون روحها كسيجارة عتيقة ويدهسونها بأقدامهم ويرحلون .

كيف لهم أن يخرقوا قلاع النساء المحصنة الخالدة والتي عكفن على بنائها منذ تفتق أنوثتهن ، وتمادين في تزيينها وزخرفتها ورفعن أسوار التوقعات حولها حتى لا يطولها أي رجل ، حتى إذا ما رق الفؤاد وحانت ساعة الخراب وحلت لعنة الرجال

يمر بقربها شبه رجل ويطرق الباب بالنعال .. وينتظر

يقذف الأسوار بالورود فتتكسر

وعندما تدك الحصون ، وتبهت المشاعر ، وتنهب كل ذرة حب ، وتحتسى كل خمرة اشتها ، ينفضون غبار الحب عن أجسادهم ويرحلون

يتركونهن عرايا بلا حصون .. بلا قلاع .. بلا قلوب .

يابسات .. خاويات .. منهوبات

هكذا هو الرحيل .. ليس له طعم سوى الأسى و ليس له لون سوى الخراب .

وهكذا هي الممالك الجميلة البهية النقية المزخرفة بالورود

تغيب وتذوي .

كفنجان قهوة برد... كحلم جميل شرد

لم أكن أعلم أن كل هذا الحزن سينهمر من قلبي بعد رحيله وكل هذا الحطام سيتراكم على شطائي معلنا تحطم السفينة ونهاية رحلة حب مدهشة واحتراق قلبين نابضين ، بكل بساطة وبرود أخبرني برسالة نصيه فجة أننا لا نصلح لبعضنا وأن علينا أن نتوقف!

لم أكن قادرة عن الكلام حينها ، وقد تجمد الدم في عروقي فعجزت عن الكتابة أو الرد وكان عقلي ثائرا حائرا مشلولا وقلبي جريح دام .

منذ متى والحب قرار؟ منذ متى والبشر يمتلكون هذي الميزة في التوقف عن الحب؟ وبالتوقف عن التنفس؟ وبالموت؟ كيف تحكم على حبا بالموت تحت تعذيب الشياطين وبالرجم بآلاف الأسئلة المبتورة والمشاعر الملهبة؟ كيف لقلبك الذي ذاق ألم الحسرة والظلم والعذاب والقهر والخذلان أن يذيقني من نفس الكأس ونفس المرار؟

ألسنت أنت سعادتي التي ولدت؟ ومولودي الذي أسكت بحبي بكائه الأبدي المنادي لقلبي؟ كيف لكل ذلك أن يرحل بقرار واحد ويموت؟ بهذه البساطة لا نصلح لبعض؟

كانت دموعي تنهمر وأنا اقرأ رسالته المختصرة حد الغثيان ، وكأنما تحول لرجل غريب لم أعرفه يوما وقلب مظلم موحش لم أسكنه وأنام بأحضان قط ، وعقل مدهلر لطالما قرأته من نظرات عيونه والآن لا أفهمه ولا أعرفه أبدا !

وكان ما كان بيننا مزحة ثقيلة أو سحابة صيف عابرة ..كاذبة ..ولئيمة .

حاولت أن أجد له عذرا أو أبرر قسوته وبروده ، ولكن لم يكن هناك من عذر ولم يكن هناك من تبرير لفعلته ، لا تبرير لأن تكف عن الحب وتتخلى عن المحبوب أبدا .. أبدا

ليس كون أهلي رفضوا استقباله أو التفكير بأمره مبررا، وليس لأنهم أهانوه وقالوا "مالك أصل " و "ولد شوارع " عندما حاول مقابلة والدي وأخي ذاك ليس مبررا كافيا ، فقد كنا نعي سويا ما سنواجه ولم نتوقع أن يستقبلوه بالورود !

نعم عدة مرات يحاول التواصل مع والدي وعمومتي وفي كل مرة يرد بالإساءة وتزداد الإهانة ويزداد الإصرار ، إصراره عليّ ومراهنته عليّ حبي " ابحت عن فتاة بدون أصل وبنت شوارع مثلك.. ارحل من هنا " قال له أخي وهو يدفعه ويصرخ عليّ مرأى من المارة في الشارع ، كانت عيناه اللئيمتان الغاضبتان معلقتين عليّ أشاح بوجهه وهو يسحب انكساره وألمه وأنا أذرف الدموع عليه وعليّ وعلى قلوبنا، أشاهده من نافذة غرفتي التي طالما كان يغازلني ويراقبني منها بأيامنا الخوالي .

وقتها وبعد أن صارحت والدتي إنني أريد الزواج من عبد الله ، قامت الدنيا ولم تقعد وانقلب البيت رأسا على عقب ، اشتعل الجنون في قلب أمي الميت وفاض الغضب برأس أبي كما لم أعهده قط ، وراح أخي يتفنن في إهانتني وإيذائي ، ويتنفس كل يوم ألمي وتخويفي ، وفجأة بعد أن كنت المحبوبة الأثيرة لديهم ، أصبحت أخوض حربا طاحنة وأسكن وسط أعدائي .

لكني كنت أتحصن بك ، ألوذ إليك وأتوسل بحبك ، وأمسخ دموعي بصوتك الهادئ الحنون الذي يمر من خلال أذني كالبلسم الشافي لقلبي المكسور ، فنبتسم ونضحك سويا على سماعه الهاتف قبل أن نغرق في أحلام جميلة حائرة ونستعد ليوم جديد وحرب محتدة .

اتخذت موقفا متحديا وأصررت أن أتزوج رسميا بعبد الله ، هذا الرجل الذي ليس له ذنب فيمن يكون ولا كيف كان، رجل شريف نظيف و لطيف يعمل بجد ويكسب بجدارة ، وهو حبيبي الذي ولدت بواكير فرحتي على يديه وتدفق الشهد من فمي إلى شفتيه، هو من يحتوي سكري وفرحتي وحزني وجنوني ومن احتوى قلبي بين أحضان روحه الحلوة الرفيعة المدهشة . وتمكن من عقلي بخفة ظله وجموحه وذكائه وطموحه ، هو ليس غيره من أريد وهو من سيكون لي وأكون له ، لكنك يا حبيبي وفي وسط المعركة وقبل أنهي احتجاجي وأكسب معركتي .. استسلمت... !

وسلمتني لهم بلا مقابل ولا ضمانات، سلمت رقبتني لأعدائي ورضيت ألا أكون لك
رضيت أن يمس جسدي رجل غيرك ، ويلوث مخيلتي الممتلئة بك ، وأي رجل ذلك
الذي يخبونه لي ليحل بديلا عنك ، ابن عمي الذي لطخ طهر طفولتي ؟

البغيض النتن الذي أكرهه ، كيف لي أن اتركه يمرغ قلبي بأوحاله ويوجع جسدي
بقربه وأحمل في أحشائي أطفالا هم نسخ منتنة منه ؟

أطفال..؟؟

توقف ذهني عن الندب للحظة !

ورحت أفكر بعمق وأعد على أصابعي حيث تأخرت دورتي الشهرية ، تأخرت في
إبلاغي أن رحمي يخلو من أي كائن صغير غير منتظر .

تأخرت..! قفزت فجأة من مكاني وقد جفت دموعي ودارت عيوني في محجريها
وسحبت الهاتف الجوال ومررت على التقويم الهجري " لا ..كان يجب أن تنزل
الأسبوع الماضي " كنت أكلم نفسي وقد انقبض قلبي وارتعد ، كنت أرتجف وقد سرت
برودة كالموت سائر بدني " لا ياربي ..لا أرجوك ياربي " رحت أصرخ

اتصلت عليك مرارا.. كالمجنونة !

وأرسلت رسائل متتابعة أطلب منك أن تكلمني للضرورة القصوى ، لكنك لم تكن
ترد..!

هذه المرة إنها حقا الضرورة القصوى "رد علي أرجوك " فلن تزهق روح حينا فقط
بل روحي وروح طفل صغير بريء تماما كأبيه.

رحت أنتفض كالمحموم وأنا أركض بالغرفة ذهابا وإيابا وأتصل على جوالك المغلق

أين أنت..؟ اللعنة على كل شيء.

تبتعد عني بجسدك بعدما زرعت في داخلي !

أي مصيبه وقعت فيها..؟ أي بلاء لم أحسب له حساب

فيروز.. دقّ الهوى ع الباب

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

الأخوين الرحباني

دقّ الهوى ع الباب .. قلنا حباينا
قلنا الحلو اللي غاب .. جايي يعاتبنا
قمنا فتحنا الباب .. والشوق دوّينا
تاري الهوا كذاب .. قصدو يلعبنا

تعب الشتي والنار .. غفيت بموقدنا
ولا في حكي ولا قمار .. تنزل وتاخذنا
ودقّ الهوى على الباب .. قلنا الهوى كذاب
ولما فتحنا الباب .. طلّوا حباينا

الشك طريق اليقين

كانت الأيام تمر بسرعة وتخطيطات الزواج مستمرة

الخطوبة وموعد عقد النكاح وأخيرا الزفاف بكل تفاصيله ، ألوان الورود وأنواعها الأوركيد الأبيض والجوري البنفسجي ومسكة العروس المطعمة باللؤلؤ والكريستال والفرقة الموسيقية عالية الصوت والتمن وأصناف الطعام المختارة بعناية .

كان أبي وعمي يقومان بكل شيء ، بينما والدتي قد عادت لتابوتها وتحنطت في ظلمتها بعد موجة الحياة إلى أملت بها فجأة ، كنت كجثة هامدة لا أتحرك ولا أتكلم ولا توجد أي تعابير على محياي ، أمضغ الطعام على مضض وعلى فراشي بعد تهديدي بالذهاب للمستشفى إن أضربت عن الطعام ، وكان المستشفى هو الرعب والموت بالنسبة لي .

وها أنا ذا أخبئ ما يستحيل أن يظل سرا ، بطنا بدأ يتكور وطفلا ينتفض من تحت الثياب الواسعة والقلب الميت، لم أكف عن مراسلته على جميع مواقع التواصل الاجتماعي أبحث عنه وأخبره إنني أحمل ابنه في أحشائي ، وأن عليه أن يعود لينتشلني وينقذنا جميعا .

نعم .. سأهرب معه إلى حيث ما يكون وليذهب الجميع للجحيم .

ولن أترك طفلي يضيع ويحمل مأساة والديه الأحمقين .

تبقى على زفافي أسبوعين ولا من رد ولا من مجيب ، وكنت لا أزال لا أخرج من غرفتي ولا أقابل أحدا ، وقد نحل وجهي وازداد انتفاخ بطني المتكور ، كيف لي أن أرتدي ثوب الزفاف الأبيض الذي طالما حلمت به لرجل أكرهه وبطن متكور منتفخ..؟ بل كيف سألد بعد زواجي بأشهر وماذا سيفعل بعد أن يعلم بعدم عذريتي وبحملي..؟ كانت تتجاذبني الأسئلة المرعبة بينما أفكر في طفلي وأتلمس ركلاته وأقدامه الصغيرة اللينة وهو يرفسني محاولا الخلاص من جحيم الحيرة الذي أعيش به

كم أتمنى أن يبقى في أحشائي للأبد حيث لديه كل ما يريد من طعام ودفء وأمان
لماذا يصر على الخروج لدنيا لا ترحم وقساوة بشر لا تفهم ؟

هكذا إذن.. حب زائف وأجساد تنفض شهوتها وترحل .

بينما أبقى أنا أسيره الخوف والحيرة ويكون طفلي بلا أب !

الابن كأبيه..؟ هل أنت تماما كأبيك الذي كنت دائما تسبه وتشتمه وتسب أمك المسكينة
التي قد تكون مثلي .. خطفوا ابنها الوليد وقتلوا..!

كان يوما حارا شديد الرطوبة استيقظت من غيبوتي وأنا أتعرق وعلى صوت مكيف
الهواء الذي يقطرمياها كدموعي .

كان جسدي بالكامل مبللا بالعرق وجنيني يتحرك بقوة داخلي وكأنما يطالبني أن
أتحرك.. أكل وأعيش بدلا من النوم الدائم الذي ألجأ إليه لينسيني همي

مددت يدي ومسحت بطني لتهدئة جنيني الغاضب المرتبك مثل أمه.

فالمسكين يتشرب حزني وألمي وكل انهزاماتي وخيباتي.

كان النهار قد انتصف .. وبطني خاوية تماما إلا من طفل .. وعيوني غائرة
كالمومياء بشفاة جافة مشققة .

فتحت فتحة صغيرة من الباب أدخلت شعاع الشمس معها وأمي .. أمسكت طرف
السريير بأصابعها المرتعشة

" ألن تستيقظي وتأكلي شيئا ؟ انظري إلى نفسك ! لا يستحق قليل الأصل هذا كل ما
تفعلينه بنفسك ! حتى أنهم يقولون أنه هرب كالفار للخارج وترك البلد كله وهذا أفضل
لنا جميعا ! هل تفهميني ؟ "

أكملت أمي كلماتها وأخبارها المنهالة عليّ كالرصااص مع بعض الشتائم المملحة التي
تنكأ جروحي ، اقتربت أكثر أمسكت ساعدي وهزتنني وأنا مستلقية في مكاني بلا
حراك

" لقد رحل انتهى ! وبقي على زفافك أسبوعين يجب أن تتقوي وتنسي ... انسي.."

انفجرت من فمي ضحكة بصوت مجلجل فراحت تبلق بعيني التي هجرتها منذ أمد

ناديتها فاقتربت أكثر .. أمسكت كفها ووضعته على بطني المتكور

كان جنيني يركل بكل قوته .. ركلات تشعرني بسعادة ونشوة مبكيه .. فقد اقترب لقائنا وفراقنا !

كنت أتمدد وقد كشفت لها بطني العامر النابض بالحياة ، لم تتمكن أُمي من الوقوف فجثت على ركبتيهما تتحسس ركلات جنيني وأقدامه ومؤخرته الصغيرة ، نظرت إليّ بنظرات حارقة وأنا أمعن في الضحك الهستيري متجاوبة مع طفلي المتمرد ، وهذا كل ما أذكره حيث اختفت أُمي فجأة من أمامي أو ربما أنا من رحت في غيبوبة لذيدة كعادتي .

استيقظت منها على صراخ أُمي المجنون وصوت أبي يصرخ محاولاً منع أخي من الدخول للغرفة ، فهمت أنه كان يهجم بقتلي وفي جملة صراخه التقطت بعض الكلمات من كم الشتائم ودعوات الموت والقتل وأنا أقاوم غيبوبتي .

" الساقطة... ملعونة .. فضحتينا.. قذرة " سمعت صوت أغراض تتكسر وأواني تتحطم بالأرض ، ربما كان يمسك بالسكين الآن ، كنت أضحك ببؤس وأنا أضع يدي على صغيري الجائع وغبت في غيبوبة جديدة .. لذيدة

رأيت فيها عبد الله يحمل طفلنا ، وأنا اقترب منه ، كان الطفل يشبهه كثيراً حتى أن لحية كانت تكسو وجهه كأبيه ، كنا نضحك ويضحك ابننا بينما اقترب مني عبد الله وقبلني في فمي قبله أيقظتني .

كان الليل حينها قد انتصف كما تقول الساعة المعلقة أمامي ، بينما أسمع خطو أُمي بوجهها البارد تقترب مني وهي ترمقني بطرف عينها وتحمل بين يديها صينيته فيها بعض الخبز واللبن

- متى ستلدين ؟

- أريد عبد الله

- متى ستلدين قلت لك ؟ قالت بحزم

- أتوقع باقي شهر
- زواجك من ابن عمك سيتأجل
- لن أتزوجه
- اسكتي لعنك الله ، والله لولا أن قتلك سي جلب لنا عارا فوق عارك لكنت أنا من يذبجك !
- أمي
- لا تقولي أمي يا بنت الشوارع .. ليس لدي إلا ابن واحد.. !
- ولدي لن أتخلص منه "صرخت فيها وهي تهتم بالخروج"
- بنات الأصول لا يفعلن فعلتك ! بنت معاقة أفضل من ساقطة !
- عبد الله زوجي..زوجي يا أمي !
- خرجت راکضة ممسوسة وعيونها تدور في محجريها ، وتركتني أتخبط بأسئلة كثيرة أدخلتني في دوامة ، تسالت رائحة الخبز لأنفي بينما جنيني جائع ويركل بقوة ، توقفت متبلدة عن الشعور بأي شيء وكل شيء ..اعتدلت على سريري ومددت يدي ورحت أقضم الخبز بشهية وابتسامة مجنونة غبية.
- كنت وطفلي نحارب في معركة للبقاء ، بينما أعدائي يتناقشون بصوت مسموع ، أم غاضبه وأب مكلوم وأخ ثائر مجنون ، تحدثت أمي بصوت عالي تقصد إسماعي
- لا تغضب يا بني في الحقيقة لم أخبرك بالسابق أنها ليست ابنتنا
- ماذا تعنين يا أمي ؟ صرخ أخي
- اسمع يا ولدي قبل خمس وعشرون سنة ولدت أمك بفتاة لكنها كانت معاقة إعاقة شديدة ومشوهة ، وكانت لدى أمك صعوبة في الحمل خاصة بعد آخر إنجاب حيث أخبرها الأطباء أنها لن تنجب ثانية ، وفي نفس وقت ولادتها كانت هناك عائلة قد أنجبوا طفلة سليمة وتم تبديل الطفلتين بالتواطؤ مع الممرضات
- الله أكبر كنت أعلم أن تلك السوقية ليست من نسلنا "صرخ أخي"

- كنت أعتقد أن التربية قد تغير شيئا لكن عيال الشوارع يميلون لبعضهم " قالت أمي ساخرة"
- لكن الجميع يعلم أنها ابنتنا "قال أخي بحزم"
- ليست مشكلة ! الأهم أننا نعرف من تكون. "قالت بكبرياء"
- ستتزوج ابن عمك بعد ولادتها ثم تخرج من مسؤوليتنا "قال أبي بهدوء"
- ساقطة لعنها الله "أضافت بصوت عال"

ساد الهدوء بعد أن أوصلوا رسالتهم ، وسمعت خطواتهم الغاضبة تبتعد ، تمددت من جديد في سريري وقد ألمت بي نوبة ضحك أبكتني فتقاطرت دموعي، صغيري هداً بعد أن شبع ، ويبدو أنه نام مسترخيا متمدا في أحشائي فنمت معه ، استيقظت بعد الكثير من الكوابيس التي تداخلت في مخيلتي مبتدئة بأيدي عمي تتلمسني ومنظر عبد الله الحبيب ميتا .

يا لتلك العائلة اللعينة التي اغتالت براءتي ، واخترعت قصه تشككني بمن أكون وتنوء بنسبها الشريف عني حتى يبعدو ابنهم عن ارتكاب جريمة قد يضيع عمره بسببها ، ربما قد يكونوا صادقين وربما لا ، لاشيء مؤكد في هذه الحياة ، ولأحد يجزم بالحقيقة الكاملة فهي تموت مع اصحابها، وكل شيء فيها قد يبعث على الشكوك، فنحن نصدق مانريده ومايجعلنا نشعر بالرضا عن أنفسنا، نفعل ذلك باستمرار وكل يوم، ومهما كنا متأكدين أننا في وهم مانريده، واننا نكذب على أنفسنا وعلى الآخرين، وحتى لو عرفنا أن الآخرين يدركون لذلك في أعماقهم جيدا ، نضل متمسكين بكذباتنا ونعيشيها كما يعيشونهاهم أيضا و باستمرار، لاشيء حقيقي، ولا شيء مؤكد ، سوى الحب !فهو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في دوامة الشكوك ! ولانني لن أعرف الحقيقة أبداً فلم يعد يهمني فأنا ما أنا عليه الآن ، والشيء الوحيد المتأكدة منه هو طفلي وحيي العزيز.

تذكرت عيون عبد الله الباسمة ولمساته الحانية ، فشعرت بغصة تحبس دموعي ونمت وأنا أتمنى ألا أصحو أبدا.

كلمات

زياد الرحباني

ألحان

زياد الرحباني

برغم الحاصل من زمان الوقت الكافي للنسيان

وعزة نفسي كلإنسان

اشتقتلك

ورغم الغلطة ومحلاً وقصتنا يللي حلاً

إنو ننساها كلاً

اشتقتلك

وواضح إنك ناسيني ومش محتاجة تواسيني

ومش بقصّداك تقسيني

واشتقتلك

اشتقتلك، اشتقتلي؟

بعرف مش رح بتقلّي

طيب أنا عم قلّك

اشتقتلك

طيب مش قصّة ما تقلّي وأصلاً مش هون العلة

العلة ما تكون اشتقتلي

واشتقتلك

وبعرف إنو ما بيسوى وشي يمنعي من جوا

وشي تاني حسّو أقوى

اشتقتلك

وهيدي السجرة العتيقة يللي ما كنّا نطيقا

حيّينا واشتقتلاً

واشتقتلك

ما بعرف شو صايرلك إنت ع بعضك كلّك

ما تقلّي ما قلتلك

اشتقتلك

هلق عايش عاللة وبكرا رح تستفقدلي

وتسأل مين كان يقلّي.. اشتقتلك

"السحب العريقة لا تبكي"

كان الشتاء قد أسدل غمامه علينا وانتشرت السحب مهيبية تزحف على رؤوسنا وترعد بغضب ، أظلمت وأرعدت وأمطرت دموعا سوداء ثم هدأت وسكنت بحزن مكسور ..مثلي أنا تماما

وحينها ييتهج الكبار قبل الصغار ويتسابقون للعب تحت قلبها المعتصر فتذوي مع حرارة الشمس تاركة برودة الظلمة وقسوة الريح .

كانت أُمي تعد الأيام وأنا اجتر الذكريات ، ترتب الأحداث في دماغها وأنا أبعثر قلبي بالألم والتساؤلات ، نسيت متى كانت آخر مرة تكلمت فيها ، حتى أن شفاهي جفت وثقلت ولساني تعطل إلا عن اللهات ، كانت ليلة باردة كئيبة عصيبة يركل بها ابني بعنف كما لم يفعل من قبل ، وقد تصبب العرق من رأسي وأذاب الخوف فؤادي ، أُمي تجهز المنشفة والماء الدافئ وتتفقد أُمي كل دقائق

- احسبي الفترة بين الطلقات إذا قلّت عن خمس دقائق يعني أنك ستلدين..فهمت

قالت وهي تشيح بنظرها عن طفلتها المسكينة المنكوبة ، وتغادر الغرفة بينما أعض شفتي وأتنفس بصعوبة ، أمسكت هاتفي وقد طرأت بعقلي فكرة وليدة "أمل" كيف لم أفكر بها من قبل ، اتصلت على أمل صديقتي اللصيقة والتي غبت عنها طويلا في دوامة مشاكل العصبية ، فردت وهي تصرخ غاضبة

- أين أنت..؟ عدة أشهر لا أعلم عنك شيئا ياقاطعة.

- أمل

كنت بالكاد أتنفس تخرج الكلمات من حلقي كالأشواك وتقتلع بقية روحي

- أنا أثق بك .. فقط ثقي بي وسأشرح لك يوما ما كل شيء

- هيام أنا لا أفهم شيئا

قالت وقد ارتجف صوتها وأخافها صوتي الحزين المرتجف

- اسمعيني أنا حبلى وسألد قريبا ، لا تسأليني عن أي شيء الآن ، كل ما أريده

منك أن تلتقطي ابني حيث سيرمي أهلي فهمتي

- ولكن ..

قالت بتخوف فقاطعتها بجدية

- اسمعيني جيدا.. أرجوك أنت تعيشين مع الخادمة وحدك لن يعلم أحد عن الطفل فقط خذيه واهتمي به وسأخذه منك عندما أستطيع .
- ولكن ..

صرخت بوجع وبدأت أبكي

- أرجوك أنا ألد الآن ، سأحاول أن أجعلهم يضعونه أمام المسجد ، حاولي أن تراقبي الحي لن يذهبوا به بعيدا أرجوك أمل ابني ليس له ذنب ، أرجوك أنا أحتاجك

أجهشت بالبكاء وأنا أنن متألمة

- حسنا لا تقلقي يا هيام سأفعل
- وعد
- أعدك
- طفلي أمانة في عنقك

أغلقت الهاتف وأنا أبكي وأصرخ فجاءت أمي راکضة تتلمس بطني وما بين فخذي

- ستدلين الآن استلقي وتنفسي بعمق لا تضغطي برجليك

كان أبي ينظر متألما من جانب الباب وقد لمعت عيناه وتشنج وجهه ، ناديته فركض إلى جوارى فقلت بصوت متهدج بالكاد أخرجه

- أنا أسفة يا أبي
- لا بأس يابنتي ، سينتهي كل شيء ونصلح الخطأ
- أبي أرجوك لا تلقوا به بالشارع أريد ابني ، أنه حفيدك يا أبي أرجوك..

صمت وهو يكتنم دموعه فصرخت أمي

- عينا ننتهي من هذي المصيبة أيتها العاهرة ، مصيره الشارع كأبيه

صرخت وأجهشت بلا دموع كالتكلى وأمسكت يد والدي بقوة

- أرجوك .. ضعوه عند باب المسجد ، على الأقل يلتقطه أحد المصلين ولا تدهسه
سيارة أو يعضه حيوان ، انسابت دمه مكسورة من وجهه ووضع يده على رأسي
- حسنا يا ابنتي أعدك ، اهدئي الآن أرجوك

وارى دموعه وخرج مسرعا ، بينما كانت أمي تصرخ بي لأدفع ، وقد احتقن وجهي
بالدماء وبرزت أعصاب رقبتني ووجهي ، متشنجة وقد تبللت بالكامل بالأسى والعرق
وضربت الآلام جسدي كالمناشير والمطارق ، واشتعل حريق في دمائي فأحرق كل
خلاياي.

وفجأة وما أن انزلق رأسه الحبيب حتى انطفأت ..

توقفت الغمامة .. وأنجبت حمامة بيضاء تصرخ مبهجة بالحياة .. والأمل .

- فتاة.. تشبهك يا هيام ، قالت أمي وقد علتها ابتسامة حنونة كنت أحتاجها كثيرا

ضحكت وضحكتُ معها دامعة وهي تقرب الفتاة الصغيرة لأحضنها وتقطع الحبل
السري ، تأملت وجهها المحمر الملطخ الذي يشبه أبيها كثيرا، تلك العينان الصغيرتان
واليدان المجدتان والرأس المبلل ببقايا أمها المسكينة .

حضنتها وبكيت ثم ضحكت وأنا أرى أمي تذرف الدموع مبتسمة وهي تنتظر إلينا
وكأنما هي هيبة اللحظة قد ألجمتها ، دخول الروح وخروجها أنستها كل شيء ، كانت
تمسح دموعها بطرف كمها وابنتي تتغنج ببكائها المشرق ، وأنا أحتضنها وأتأمل
وجهها محاولة حفظه وقد أحسست بالحب يسري مباشرة من قلبي لقلبها أعمق مما كان
يفعل وهي في بطني ، جلست أمي منهكة على طرف السرير تنتظر لكاينا بينما اقترب
أبي منا باكيا و حملها بيديه وقبل جبينها وجبيني .

- جميلة.. لا تشبهك !

قال مبتسما وهو يبعد ناظره عن عيني المترقبة

ربما سيعفون عني.. ربما ستقدر ابنتي ببراءة الطفولة أن تفعل ما عجزت عن فعله
كاد قلبي أن يتوقف وأنا أرى أبواي وقد خارت قواهما أمام جبروت البراءة ونظرات
الملائكة الصغار وبكائهم وضعفهم .

لكن صوت أخي جاء من بعيد مقاطعا كل أحلامي

- بسرعه لفوا هذا الشيء لا وقت لدينا

صرخت بعنف وأنا أحتضنها لصدري بقوة كمن يخبؤها بعيدا

- لا .. لن يأخذ ابنتي أحد

اقترب بوجهه إلى وجهي وقد أحمر وانتفخ غاضبا

- والله إن لم تسلميني إياها الآن سأقتلها أمامك

نظرت باكية لوالدي أستدر عطفه ورحمته وأنا أرى عيني أخي الملتهبة بالشرر
تقصد جادة ماتقول ، فلن يتوارى عن قتلها أمامي أبدا ، لكنه خرج وتركني أواجه
مصيبتني وحدي .

- أعطيه البنت يا هيام ، سيضعونها أمام المسجد وتعيش ، لو احتفظت بها فأنت
تعلمين ماذا يمكن أن يفعل أخوك " قالت أمي بصوت مخنوق "

سكت طويلا ودموعي تنساب بلا توقف ، وكأن ينبوعا من الدموع الحرى قد
انفجر في داخلي

- أريد أن أرضعها على الأقل

قلت خائفة وقد انسابت دموعي ، تملل أخي فنظرت إليه أمي ليسمح لي بدقائق
أخرى مع ابنتي قبل إعدامنا ، فكيف لي أن أكون في آخر اللحظات بيني وبين
حبي التي عاشت في تسعة أشهر والآن حينما اقتربنا للنلامس بعضا ابتعدنا !..

ألقيتها حلمتي فأمسكتها وكأنما تعرفها جيدا ..رضعت حليبي ودموعي ونامت .

حملتها أمي وألبستها وغطتها جيدا ، فالبرد قارصا وائل الشتاء في الداخل فكيف
هو حال رضيع عمره ساعة واحدة وفي الشارع !

كانت أمي في قراراتها تعرف أنها ستموت ، فمن سيخرج ليلتقط رضيعا بعد
منتصف الليل وفي يوم بارد ، كان عليها أن تصمد على الأقل ثلاث ساعات حتى
يأتي المصلون ويلاحظوا وجودها المؤلم .

أخذوها مني .. وانتزعوا آخر إحساس بالحياة لدي ، كانت عيوني معلقة عليها
وأمي تلبسها وتحكم لفها وتغطيها وهي تنام كالملاك لا تعلم ماذا يحصل لها ، لا
تعلم أن غدا معتما قد رسم لها بقرارهم .. هذا ان عاشت لترى الغد .

تجمد عقلي وقلبي وربما مت حية .

تسمرت وأنا ألاحقها تنتقل من يد أمي إلى يد أخي إلى الشارع الموحش البارد
المجهول .

أمسكت هاتفي وأرسلت رسالة قصيرة لأمل .. " الآن انتظري "

تمددت كالمومياء مقبوضة الروح منكسرة القلب والجسد ، هل ستجدها أمل..؟ أم
يلتقطها مجهول قبلها ؟ هل ستموت من البرد وتجف كالورقة اليابسة ؟

هل سيعضها كلب ضال أو يكتنم أنفاسها كيس بلاستيكي يطير في زوبعة الريح ؟

هل وهل وهل ...؟

آه يا فلذة قلبي .. آه يا صغيرتي ..ويا مناي وروحي التي انتزعت مني ..

آه يا بريئة لم تذنبني .. وكيف لك أن تذنبني في دنيا لم تخرجي إليها إلا قبل ساعة
ولم تري فيها شيئاً سوى صدر أمك المكشوفة .

عمرك ساعة يا حبيبتي وأنت ملقاة على الرصيف.. بلا بيت لا أب وأم ولا حتى
اسم تعرفين به.

آه يا قسوة البشر.. يا جبروتهم .. يا ظلمهم ..

آه يا ابنتي ..

وعندما غنى الحب ...

فيروز.. حبو بعضن

كلمات

الأخوين الرحباني
ألحان
زياد الرحباني

بيقولوا الحب بيقتل الوقت
ويقولوا الوقت بيقتل الحب
يا حبيبي تعا تا نروح
قبل الوقت وقبل الحب
بديت القصة تحت الشتي
بأول شتي حبو بعض
وخلصت القصة بتاني شتي
تحت الشتي تركوا بعض

حبّو بعض
تركوا بعض

يا حبيبي شو نفع البكي
شو إلو معنى بعد الحكي
مازالا قصص كبير
وليا لي سهر وغيري
بتخلص بكلمة زغيري

حبّو بعض
تركوا بعض

وكانت القصة تحت الشتي
بأول شتي حبو بعض
وخلصت القصة بتاني شتي
تحت الشتي تركوا بعض
حبّو بعض
تركوا بعض
حبّو... تركوو

الشتاء في القلوب أفسى

كانت أنفي الحمراء تسيل ، ويداي ازرقتا فلم أقو على تحريكهما ، أصابعي تيبست والهواء البارد يلفح عيني فتصعب على الرؤية في هذا الظلام ، قد تكون درجة الحرارة درجتان اثنتان فالليلة باردة جدا كقلوب أكثر البشر .

انتظرت طويلا كالأبد كنت أمشي كاللص متلفتة بقلب مرتجف بينما يجري تراقبني من بعيد ، لففت حول المسجد مرتين وثلاث في الرابعة كنت أقرب فيها للزحف خوفا وتعبا ، لكن رجائي أن أعثر على الطفل كان أقوى من قنوطي، جلست متلعة بالسواد وقد بدأت تضعف رجلاي عن حملي .

ماذا لو رموه بمكان غير المسجد ؟ محل البقالة أو الحلاق أو حتى صندوق النفايات ؟

دمع قلبي وأنا أتخيل هذا الصغير بعيون هيام ورائحتها يبكي مرتجفا وحده في ظلمة الليل ، مناديا لأمه البعيدة كالمستحيل " لن يصمد. " قلت في نفسي وأنا بالكاد أسحب أنفاسي وأشعر بالخدر يسري من أقدامي قاصما ظهري .

سمعت صوت يجري يناديني بخلسه من بعيد ، التفت فاذا بها تشير لي لأنتبه للقادمين بأثوابهم السوداء ووجوههم المثلثة ، خطوات مسرعة خائفة وعيون مذعورة يتهدى بين يديهم طفل صغير بلفافته التي غاص داخلها بروحه اليتيمة فانقبض قلبي.

لماذا يا هيام ؟ عرفتك دائما حكيمة قوية تخططين لكل خطوة وتبعدين عن أي غلطة مهما تناهت في الصغر ، والآن تفاجئيني بهذه الغلطة الكبيرة التي لا تفهم ولا تغتفر، تنهدت وأنا أشعر بالحيرة والخيبة والحسرة عليهما الاثنان أم مكلومة ویتيم بالقوة محروم .

وضعه أحدهما وهو يتلفت يمينا ويسارا أمام باب المسجد مباشرة حيث لن تخطئه عين أو قدم ، تخلصا منه بقلب بارد وكأنما يتخلصان من قطعه أثاث بالية عتيقة ركضا مسرعين واختفيا في الظلام ولم يلتفتا لم يلتفتا لقطعة اللحم الطري المتجمد في عمق الليل .

تلقت مذهولة وأنا أحرك قدمي محاولة المشي باتجاهه.

فاذا بي أفاجأ برجل قادم من مغسلة الوضوء وهو يخلل لحيته ويمسح رأسه .

" اللعنة صلاة الليل " قلت بحسرة و تراجعت متخفية بين النخلات التي تعصف بها الريح ، توقف منتبها لصوت بكاء مهزوز صادر من خرقة على الرصيف، اقترب .

حركه بيده ..حوقل . .مسح رأسه ووجه غاضبا.. تلفت

حمل الطفل بين ذراعيه .. ودار به وعيناه تزوغان حيرة

نظر للساعة بين يديه .. وامتد نظره ثابتا نحو الطريق.. قرب الصغير من وجه وقبله .

تلفت حوله من جديد وأعاد له مكانه وهو يحوقل بألم ..خلع نعليه ..ودخل المسجد ناظرا للأرض خجلا من السماء .

تنفست الصعداء وقفزت مسرعة نحو الطفل خطفته وركضت كالبرق نحو ميري

حملته وحضنته بين ذراعيها تدفؤه وقد تهدج صوته.

دخلنا للشقة وأغلقت الباب لاهنتين

- احضري كمادات دافئة بسرعه يا ميري

حملت الصغير المحشو في بطانيته الباردة ، دلكت يديه ورجليه ووجه المنتفخ ورأسه الصغير المشعر، وبدأت تدفنته بالكمادة حتى سمعت صوت بكاء يعلو فعادت لي الروح .

- حليب يا ميري

- لا يوجد حليب أطفال

- أي حليب .. وملعقة صغيرة حتى الصبح بسرعة

حاولت إدخال القليل من الحليب الدافئ في جوفه وهو يبكي .. ويبكي .. وأنا أبكي معه
حضنته فهذا قليلا ثم عاد للبكاء ، نظرت إلينا ميري

- أعطيه صدرك

- ماذا..؟ إنه جاف .. مجنونة أنت

- أعطيه صدرك سيهدأ

وبلحظات لم أشعر بنفسى إلا وأنا ألقمه حلمتي الجافة فيبتلعها متلهفا جذلا ويمتصها
بقوة .. حتى نام .

حضنته طويلا وقد بللت عيناى الدموع ، وقصم ظهري هذا الحمل اللطيف أخذته
ميري من بين يدي لفته وغطته فغاص في نومه كالملاك .

كان الفجر قد أطل وبدأت الأنوار تتفتق وتملأ الدنيا بالأمل ، أمل بحلم جديد وحياء
جديدة وعمر كتب من جديد في المجهول لطفل لا يعرف من يكون ولا أي ثدي التقمه
ولا أي صدر توسده ولا أي حياة سيعيشها أو اسم يحمله وعن مجتمع اعتاد أن يلفظ
أمثاله

أسرعت بالخروج بعد الفجر لأقرب صيدلية مناوبة ، رضاعات حليب وحفاظ
سيحتاج ملابس ، غسول أطفال ، كنت أتسوق لطفلي الجديد بشغف وخوف عندما
عدت كانت ميري تضحك وهي تقول لي إنها فتاة .

فتاة أو فتى ..ولأول مرة ..لا فرق في المصير المظلم .

أعطيتها أول جرعة حليب مشبعة وحضنتها بعد أن ألقمتها صدري فنامت ونمت
منهكة وأنا أحملها ونامت ماري .

جميعنا كنا منهكات .. متعبات .. خائفات من المستقبل المجهول ونسيت تماما الأم التي
تنتظرني أن أطمئنها ، الأم التي أحرقت الهاتف بالرسائل والاتصالات ولا من مجيب
استيقظت على صوت صغيرتي متضايقة من إخراجها ، نظفتها وأطلقت يديها
الصغيرتين لتلهو بهما ، تنبهت للهاتف المملوء بأمرها ، اتصلت عليها وقد انتصفت
الظهيرة

- إنها معى ..إنها بخير ..

كانت هيام تبكي وتشهق على طرف الهاتف ، وأنا أدمع و أضع خنصري وسط
كف ابنتها الناعم المتناهي بالصغر

- لا تقلقي ..ستكون بخير .. ما اسمها بالمناسبة ؟
- سميتها أنت .. قالت وهي تعاند بالبكاء
- فجر .. بوقت التقاطها

كان البكاء قد غلب هيام فأقفلت الهاتف وهي تغالبه !

فجر طفلاتي الجميلة بملامحها الدقيقة وشعرها الأسود الكث ، تلك الملامح المميزة التي
لا تشبه هيام أبدا ، من هو يا ترى أبوك يا صغيرتي وماذا حل به .

مرت الأيام مسرعة كالحلم ، الأطفال وحدهم من يشعروننا بالزمن، في كل يوم
يكبرونه يتغيرون ، في أولى ضحكاتهم وأولى انتبهاتهم وتميزهم لأصواتنا .

في أول وعي لهم للحب والخوف ، الغضب عند وداعنا والفرح الثائر عند الخروج
للتنزه ، بروز سنهم الأول والتقاهم كل ما يمكن أن يصلوا إليه ليديموه بهذا السن
الوحيد، اختيارهم لمن يحبون ومن يكرهون ، نوبات غضبهم على بسكوتة أو حلوى،
اختيارهم لأصناف طعام حلوة وبزقهم لطعام صحي لا يحبونه ، أولى شقلياتهم وتهادي
جلساتهم أولى الخطوات الخائفة المرتجفة ومن ثم الركض إلى كل مكان و بعثرة كل
شيء في الطريق ، وحدهم من يدهشوننا بسرعة انقضاء الزمن ، الأطفال والتجاعد
متخصصون في تذكيرنا كم هرما .

كانت هيام تزورني كلما سبحت لها فرصة وتمارس الأمومة مع ابنتها ساعة أو
ساعتين وهي تحمل هم فراقها كل مرة ، استطاعت بذكاء تأجيل زواجها لعدة أشهر
إضافية ، وبدأت علامات القلق والحيرة تطوف بها وتعشعش في مخيلتها كلما اقترب
الموعد .

- اليوم ذهبت مع أمي لقياسي فستان الزفاف
- جيد.. هل أعجبك ؟
- لن أرتيه تعلمين ذلك

قالت وهي تلاعب فجري وتدغدغها وصوت ضحكهما يملأ المكان

- كيف ماذا ستفعلين ؟

- لا أعرف

قالت مبتسمة هازة كتفها بدون أن تنظر في عيني ، شددتها من ساعدها

- هيام .. ماذا ستفعلين ؟

- أظن إنني سأخطف ابنتي وأهرب

- أين يا مجنونة وكيف ؟ سيجدونك ويقتلونكما !

"قلت مرتعدة وفد تشنج صوتي"

- سأبحث عنه وأسافر إليه

- بعد أن تركك لا زلت تقولين هذا

" قلت غاضبة "

- لم أقاس كل تلك الأحزان لأتزوج ابن عمي العفن وأبقى بعيدة عن ابنتي

سأبحث عنه وأجده وأحصل عليه

- أنت مجنونة

- أعرف

قالت وهي تضاحك فجري

أعرف أنها مجنونة ولا أقدر على تسليمها فجري ، لقد تعلقبت بتلك الطفلة الصغيرة حتى غدت جزء من روعي كيف سأسلمها للموت بيدي؟ ملأني الهم حتى ملكني ورحت أعيش في دوامة خوف وصراع نفسي كبير.

فهي ابنتها على كل حال ولها الحق بها ، ولكني أمها أيضا ولي حق بها كما لهيام أنا من التقطتها من الموت وأرضعتها صدري بعد أن حالوا بينها وبين صدر أمها وأنا من رعى ضعفها حتى استوت شقية بهية سعيدة .

سأخسرهما معا أعرف أنها ستموتان ..ولا يمكن أن أحتمل هكذا خسارة مضاعفة

فكرت وخططت للحل الأفضل لي ولها سأستخرج لها شهادة ميلاد مزورة وجواز سفر وأسافر بها بعيدا عن جنون أمها فأنا أولى بها ليس أمها الغير مسؤولة ، وأنا يتيمة وحيدة لن يسأل عن غيابي أحد من أقاربي البعيدين ولا عائلة حاضرة لتقلق علي .

كانت هيام تشعر في ثنايا صوتي أنى أخطط لشيء ما فليست هي من يمكن أن تستغفل ،
جهزت شهادة الميلاد والجواز فجر عبدالله العبدلله ...ابنتي !

حددت يوما للسفر وحجزت الفندق وحتى السيارة التي ستقلنا من المطار ، تبقى
أسبوع واحد يفصلنا عن الرحيل وهو ما يفصل هيام عن زواجها ،طرقت بابي
بطرفتها المعتادة،وفتحت لها بوجه لم تعتده..

- ما بك ..؟

- لا شيء ياهيام تفضلي

حملت ابنتها التي ركضت ضاحكة بين يدها وأنا أشيح بوجهي عنها وأحاول إخفاء
حقيبة السفر وعيني الفاضحتين

- ستسافرين..؟ قالت وهي تنظر لطرف الحقيبة الذي يظهر من تحت السرير

- أين..؟ ذوقي هذي الحلوى فجر تحبها مع أنها حامضة

قلت ضاحكة ضحكة مهلهلة مكشوفة

- صاحب العمارة يقول إنك ستخلين الشقة يا أمل .. هل ستسرقين ابنتي مني ؟

صرخت في وجهي وقد اغرورقت عيناها بالدموع فساد صمت فاحم قاتل

- لا تطعنيني يا أمل ..أرجوك قلبي لم يعد يحتمل

- آسفه يا صديقتي ..لكنني لا أريد أن يصيبها مكروه

انهرت باكية وأنا أحضن فجري وأقبلها وهي تمسح دموعي بيديها الصغيرتين
احتضنتني وفجر .. وبكىنا سويا ..أخرجت الجواز .. وشهادة الميلاد.

- إنه لك والتذاكر لك .. سافري ابحتي عنه .. وأنا سأبقى هنا لو احتجتني

- سنسافر سويا

- لا داعي يا عزيزتي ارحلي أرجوك

- لن أرحل بدونك ..هي ابنتك كما هي ابنتي وكل شيء مسجل باسمك ، سنبحث

عن عبدالله فأنا عندي معلومات دقيقة عن مكان سكنه في لندن ، عيشي معنا

هناك وسنظل سويا

- من أين لك المعلومات..؟ قلت وأنا أمسح دموعي متفاجئة

- يبدو أن كلبه المفقود سيدلنا عليه
 - لم أفهم !
 - لا عليك الآن أكملّي تجهيزاتك كما هي وسنلتقي في المطار
- ضحكت وهي تهتم بالخروج وقد علت عينيها فرحة لم أرها منذ زمن
- حضنت فجري بفرح وأخبرت ميري بخطتنا الجديدة وخيرتها بالسفر معنا أو لبلدها
- فاختارت وطنها
- كل شيء كان على ما يرام ..
- عدا زفاف هيام المقرب .

فيروز.. أنا عندي حنين

كلمات

الأخوين الرحباني

ألحان

زياد الرحباني

أنا عندي حنين ما بعرف لمن
ليلي بيخطفني من بين السهرانين
بيصير يمشيني لبعيد يوديني
تا أعرف لمن و ما بعرف لمن
عديت الأسامي و محيت الأسامي و نامي يا عيني إذا راح فيكي تنامي
و بعدو هالحنين من خلف الحنين بالدمع يغرقني و بأسامي المنسيين
تا أعرف لمن و ما بعرف لمن
أنا خوفي يا حي لتكون بعدك حي و متهياي نسيك و أنتا مخي بقلبي
و بتودي الحنين ليلي الحنين يشلحني بالمنفى بعيونك الحلوين
تا أعرف لمن و ما بعرف لمن

زفت إليه !

وكما يمكن لزفاف الأحلام أن يكون !

لبست الفستان الأبيض الطويل بلا أكمام فازدان جمالها ، وخطفت الأنفاس بهيبتها ورقّي منظرها ، كان نحرها مطرزا بعقد ماسيّ فخم يبرق من بعيد ، فلا تخطؤه عين وشعرها العجري وقد رفع لأول مرة عن وجهها فأظهر ملامح قمرية فاتنة لا يمكن إلا التسبيح في حضرتها .

كانت نجمة العرس بلا منازع ، وبخطوات ثابتة زفت ، وهي تبتسم بهدوء ذكي مدروس ، وكان ابن عمها " وزوجها " يذوب في مكانه وهو يتأمل جمالها الأخاذ الذي أصبح ملكه وحده ، وقد سلبته عقله بفتنة أنوثتها الطاغية ، قبل جبينها حالما وصلت إليه ، فتغير وجهها الذي لاحظت أنا اشمئزازه بينما لاحظ الآخرون خجله ، راقصها فأبت متحجبة بالخجل فازداد جموحه ورغبته التي لم يتمكن من إخفائه، همست له بأذنه فوقف ومشى مبتسما على أغنية تأذن له بالرحيل ، رمقته مغادرا وقد علتها ابتسامة انتصار تغلف قلبا خائفا من مصير غير محسوم ومغامرة خطيرة قد تقضي على كل أحلامها

لكننا ومع كل مخاوفنا رقصنا سويا وابتهجنا وجننا ، رقصنا رقصة الانتصار على غبائهم وغفلتهم ، رقصة التهور والانجراف نحو المجهول .

وربما قد تكون الرقصة الأخيرة .. رقصة النهاية !

ومع أن هيام قد عادت بكرا بعد رحلة سريعة مع أمها إلى بلد مجاور ، لكنها كانت عازمة على عدم السماح لزوجها الجديد بلمسها ، كانت تملك الإرادة ولم تك تعرف الخطة ، ضغطت يدي بقوة وهي ترتجف عندما حانت لحظة رحيلهما للفندق ألبسوها عبائتها وعطروها بالعود وأجود العطور الفرنسية وبخروها وجددوا مساحيق الزينة على وجهها الذي بدأ يصفر ، كانت تعلق عينيها على عينيّ وكأنما تستتجني ولكن كيف لها من خلاص ؟ وأين لي أن أنجدها من قدرها المحتوم ، تركتها ورحلت مرعوبة أترقب أطول ليلة أعرف أنها قد تمر عليها .

كانت ميري تجالس فجر في شقتي ، دخلت وأنا أجرجر أقدامي المتعبة من الرقص تحت كعب عالي قد أنهكه حمل شحومي و همومي ، كنت أكرر داخلي كمن يحدث

نفسه " كل شيء سيكون على ما يرام " وكما مرت لحظات عصيبة قبلما ستمر هذه أيضا ، كنت أقنع نفسي بالقوة بأمر يصعب الاقتناع به ، ففي غرفة مظلمة هادئة وذكر متعطش همجي وقلب متألم يحمله جسد أنثوي طاغ كهيام لا يعلم ماذا ستكون العواقب ، لكن عيون فجر الناعسة وهي تحاول فتحها عندما أحست دخولي كانت كافية لتخفف عني ، حضنتها وقبلتها وأخبرتها أن كل شيء سيكون على ما يرام ، ابتسمت صغيرتي ونامت فتمت معها بفستان العرس الضيق والذي كنت بالكاد أجتري أنفاسي من خلاله وهو يضغط على صدري الغزير ، لكن ضيقه كان أوسع من همي كثيرا فتمت .

استيقظت وقد تيبست مفاصلي واختلطت ملامحي بالمكياج الملطخ بعشوائية وكانت فجر قد تسالت من حضني فلم أشعر بها لغزر النوم الذي هبط عليّ ، قفزت وقد فزعت من هول منظري ومسحت وجهي وغسلته جيدا حتى عادت ملامحي كما أعرفها ، كانت فجر وميري يتناولان غدائهما نهاية الظهر بينما أنا بفستان العرس لم أبرح ليلة أمس .

أمسكت بالهاتف باحثة عن هيام ، أي رسالة أو مكالمة تطمئني عنها ، ترددت بالاتصال حتى أنني كنت أفتح على رقمها ثم أقفل الهاتف وألقي به بعيدا وأنا أدور حول نفسي ثم أعود لالتقاطه لأتصل فأتردد ، فوجئت باتصالها وأنا في دوامة ترددي

- طمئيني عنك !

- أنا بخير

ضحكت بأريحية ففهمت أنها حقا بخير ، أخبرتني على عجلة أنها لم تدعه يلمسها وتظاهرت بالخوف والمرض والتوحش ! ضحكت كثيرا وشهقت وهي تشعر بانتصار كبير وأضافت

- لا تخافي هو أبله ! وأنا في موقف قوي .. لقد جعلته يغير حجز سفرنا لشهر

العسل على نفس رحلتك وفجر

- هذا رائع ! فعلتها إذن

- قلت لك سنلتقي في المطار وأنا أعني ما أقوله دائما

قالت بفرح غامر وبضكة مهيبه

- إذن سيكون كل شيء على ما يرام .
- أرجو ذلك يا عزيزتي ، قلبي فجري قبلات كثيرة سأراكم بعد ثلاثة أيام على الطائرة .

ذابت أغلب مخاوفي وأنا أسمع صوتها الواثق ولو أنني كنت أخاف من الثقة المفرطة تلك، حيث أنها بالغالب كانت تخبئ اسقاطات لا يحسب حسابها ،ودعت العروس أهلها المبتهجين بفرح غامر كأن شيئاً لم يحدث ! يحسبون بكل سذاجة أن الأمر قد انتهى ، وأن الروح التي قرروا إعدامها ببساطة قد طوتها الأيام وعالج قهرها فستان أبيض وعقد ألماس وعرس مهيب !

لا أعرف إن كان الناس يتعمدون النسيان أم أنهم حقاً ينسون خطاياهم ؟ وأنهم حقاً يطوون مشاعرهم كالقراطيس التي تغلف قلوبهم ويلقون بها في عين الشمس ليحصلوا على قلوب جديدة ناصعة ؟

لم أكن أستطيع التوقف عن التفكير وأنا أجهز ما تبقى من أغراض ابنتي وألمم عفش المنزل وأسلم المفاتيح ، فأني مستقبل مجهول أخبئه لنفسي؟ ولماذا أقحم نفسي بأمر لا يمت لي ؟ وذنب لم أقترفه؟ هل كان من الأجدي أن اعتذرت منذ البداية عن التقاط الفتاة المجهولة من الشارع وتلطّخ سمعتي بأمر لا يخصني؟ هل كنت على صواب فيما فعلت؟ وهل أنا أكمل سلسلة الاخطاء التي بدأتها تلك الليلة وأسافر معها تاركة كل شيء ورائي ؟ عملي وبقية عائلتي وأصدقائي وبلدي؟ ولماذا أقدم كل هذه التضحيات ؟ لماذا؟

كانت فجر تركض سعيدة في فناء المطار الواسع وهي تصرخ وتزعق ثم عادت إليّ واحتضنتني وأنا أجلس سارحة في أفكار فتضائلت تساؤلاتي عند عينيها الضاحكتين وقطعة السكر على شفتيها اللزجة ، فالحقيقة أنا لا أملك شيئاً كي أخسره !

ولا يمكن أن أتنبأ بما قد تسوله لي نفسي ، والحقيقة وأنني وقد شارفت الأربعين لم تطع شفتنا رجل مبسمي ، ولم يتمكن آخر أن يتمكن مني ، فأنا حرة نفسي وملك إرادتي ولا أخضع لإرداه بشر ، والحب والعلاقات هي أول ما يسلب الإرادة ويسرق الذات ويتحكم بالمشاعر على غير مبتغانا .

" اللعنة على قلبي " ضممتها بقوة وأنا أعرف شيئاً واحداً و بلاشك، وهو أنني ما خلقت إلا لأجل أن أنقذ حياة هذه الطفلة ، وحينما أكون على فراش الموت قد أندم على كل لحظة ضيعتها في حياتي لكنني لن أندم أبداً على أنني أحييت نفساً من الهلاك أو المستقبل المظلم .

كنا نتبادل النظرات الباسمة ونبتهج بانتصارنا على متن الطائرة ، وفجر تركض إليها ملاعبة لها بينما هو ينظر ببلاهة المستفزة مبتسماً دون أن يخالجه أي شك ، نعم إنها الرحلة الأخيرة رحلة اللاعودة .. رحلة الخلاص !

حطت بنا الطائرة ونزلنا تباعاً وقد تطاير شعر رؤوسنا في سماء لندن الباردة ، كنت أرتدي وفجر قبعات من الكروشية يدوية الصنع ، متشابهة باللون الأحمر القاني وملابس ثقيلة تعبر عن مدى خوفنا من بردهم ، كان سائق الفندق ينتظرنا بالمطار وحملنا وحقائبنا معه بينما عيني هيام لا تفارقنا وهي تمشي بجانبه بابتسامة مغلفة وشفافة مرتخية وقد لفت عنقها بشال يشبه قبعتنا التي صنعتها لنا ميري قبل أن ترحل

ومرت الأيام ونحن نستثمر أوقاتنا بالانبهار بجمال الطبيعة وزهو الألوان وتجانس الثقافات على اختلافها في كل شيء واحتفاظها بخصوصيتها بشكل مبدع ، لم أكن ألتقي هيام إلا بالصدفة ولم يثمر بيننا حوار حول ماذا سيكون بعد .

وفجأة وقبل أن يغادر العريسان لندن إلى وجهتهم الثانية اختفت هيام ..!

وكما تفعل دائماً بنا بمفاجأتها الغريبة كانت قد رتبت سكننا ورفعت طلباً بالجوء هروباً من العنف النفسي الذي يمارسه زوجها كما ادعت ، ولأن القوانين هناك لا تنتظر أحداً فقد اختفت عن عيني البغيضتين ، وغادر مسرعاً قبل أن يودع في غياهب سجونهم ، وفي لحظات كانت هيام بلا خوف تذوب في أحضان ابنتها وتتنفسها بشوق المحرومين ، ولأول مرة تتمكن فيها من البقاء معها بلا محاناة الرحيل ، وابتدأت بعد أن هدأت سريرتها رحلة البحث عن الأب . الأب المفقود.. والحب الموعود !

فيروز..وشاية

كلمات

نزار قباني
ألحان
الأخوين الرحباني

أأنت الذي يا حبيبي .. نقلت
لبيض العصفير أخبارنا ؟
فجاءت .. جموعاً جموعاً .. تدقُّ
مناكيرها الحمر شباكنا
وتغرق مضجعنا زقزقات
وتغمر بالقش أبوابنا
ومن أخبر النحل عن دارنا
فجاء يقاسمنا دارنا
وهل قلت للورد حتى تدلى
يزركش بالنور جدراننا ؟
ومن قصّ قصتنا للفرش
فراح يلاحق آثارنا
سيفضحنا يا حبيبي العبير
فقد عرف الطيب ميعادنا ..

الموعد الاخير

لا يمكنني ان ادعي أنني لم أحلم يوما كبقية الفتيات بالحب ، وبالفارس على حصانه
الابيض ينتشلي من وسط واقعي الذي لايشبه أحلامي أبدا، وكأي مراهقة كنت أتباهي
بأنوثتي وجسدي وأتألذ بنظرات الاعجاب أحصدها من هنا وهناك

ولا أنكر أن سكرة الشباب قد أنستني أنه غير دائم ، وأن المرءة التي تمتدح تفاصيل
وجهي وانحناءات جسدي الغض المتلحف بشعرأسود غزير ستبدأ بلا رحمة في
انتقادي وابراز عيوبتي ، وأن الجمال والصحة واللذين كنت أعول عليها لنجاح حياتي
وتميزها عن الاخريات سيخوناني بالنهاية ، كل سنة كانت تمر عليّ لم أكن لأبالي بها
لاني أراني أنثى متفردة أعج بالجمال الذي حسبته بسذاجة غير متناهي ولا منقطع ،
فأنا كبقية البشر تضعف مداركنا عن استيعاب كمية التغير الذي سنواجهه خلال الزمن
،فخذهة الشباب تنطلي على جميع البشر بلا استثناء ،وكأن ايادي الزمن التي طالت
عجائزنا فدهورتهم لن تطولنا ابدا،

ورحت أبعثر طاقاتي بين صداقات وحب لم يتجاوز حد الهاتف وأخرى تمادت
لللقاءات عابرة مرهقة، وأرفض الزيجات التي ترتب لي ممن تبقى من أقاربي بغرور
عجيب

كل رجل أحببته "أو هكذا ظننت حينها" في رحلة البحث عن حب صادق في صحراء
بلادي، رحل عني وقد سلّمني شيئا لايسترد، وكل روح لامستني وكل صوت غفوت
على هدوءه باسمه كطفل في مهاده، وكل اغنية ذرقتها بصوتي الوثير او دمة رحيل
،تركو في قلبي أثرا لا ينمحي ، واداركا قويا بعبثية هذا البحث الاعمى واستحالة
الوصول الى المحبوب

فالاول أخذ رجفة الحب من قلبي، والثاني أعدم ثقتي ببني جنسه ،والثالث نهب بهجتي
ولمعة عيوني ، والرابع علمني كيف يكذب الرجال بلاجل ، والخامس رحل بماتبقى
في قلبي من أمل ، ولم أشعر بي الا وأنا شبه أنثى ! بقايا قلب لا ينبض وترسبات
مشهورة عن الحب وذكريات محبطة وتمسك باللامل واللافرح واللا اقتراب !

كرهتهم جميعا .. كما احببتهم يوما ! وكم تمنيت في أعماق روحي لو كان لديّ قوة
سحرية ، تسمح لي أن امزجهم جميعا كالعجين واشكلهم لأحصل على حبيب كامل
يحمل كل ما أحببته في كل منهم، لاخلق الرجل الذي أبيغيه وأتمناه ،الرجل الذي
لايخون ،ولايكذب،ولايستغل، ولايمل ولايبأس ولايضمن قلبي فيجفو أويرحل .

فمن الاول كنت سأخذ حبي وانجذابي المحموم واللامفهوم له ،ومن الثاني سأقتنص روحه المرحلة وضحكاته التي تصيب قلبي في مقتل ، والثالث ساخذ عطاءه وحبه الخالص وتميز اهتمامه الفريد ،والرابع ساخذ حوارته اللامنتهية وانسجامنا العقلي وذكاءه وطموحه المخيف ،ومن الخامس كنت أريد جسده وطوله وسحر جاذبيته ، ويا لا روعة هذا المخلوق الذي يصنعه خيالي ويهيم به ، والذي ينتشلني بغباوة من بداهة الواقع ويطير بي بعيدا حيث أحب ، حيث أحب الحب لا المحبوب ، وأضيع في رحلة بحث شاقة عن اللاممكن واللاموجود!

يتشارك الرجال في صفاتهم العميقة كما يتشارك جميع البشر في صفاتهم البدائية البشرية، لكنهم يتطابقون في لحظات الحب والضعف ، وكأنا تشاهد فلما تعرف فصوله وتعرف بالتحديد ما الخطوة القادمة التي يلعبونها ،في وقت يظنون انهم غامضون وان نواياهم مخفية عن عيون الانثى التي لاتخطئ

فلا تخطئ الانثى بتوقعاتها ولا احساسها ابدا، فهي تعرف من سيرحل ومتى، وتظل الطريقة حصرا له يتميز بها عن الاخرين ، كلهم متشابهون ، ضعفاء ، تملكهم طفولة مغبونة ورجولة مهتزة ، وذكاء أبله مكشوف ، وكل انثى في داخلها تفهم الرجل كما لايفهم نفسه وتمتنع عن التصريح له بغباوة ذكاءه وانكشاف مخططاته ، لكنها وباحساس الام الحانية تأبى ان تجرح كبرياءه المهزوز ، وتتركه يتمادى بغيه ، يجرح ويتشاقى ويتنمر ويرمي بالتهم ويدبر الاعذار الباهتة للرحيل ، يغطي ضعفه المريض وجبنة القاهر أمام قوة ضعفها التي يدركها منذ أول التقاء للعيون

لا يبحث فيها عن الانثى المغرية فقط ، بل عن صدر الام الحنون ، يوقظ امومتها بحبه حتى تنسى نفسها وتهلك قلبها في ولادة عصبية ومخاض لاينتج الا الالم ، يبكي كطفل بين ذراعيها ويزفر الذنوب والوجع ،فتحضنه بكل امومة وحب وهي تعرف في اعماقها أنه ليس طفلها ،تمسح عنه الاحزان وتلفه بلفافة من نسيان وتسلمه لانثى اخرى تكمل احتفالية الميلاد او لوحدة قاصمة لا ينمو بعدها ابدا

يحتاج الرجل لحليب انثى ليبلغ مراتب الفحولة ، ولا تحتاج الانثى من يوثق عمق انوثتها أبدا ، فهي رحم الارض ومنبع الحياة وشعاع السعادة الذي يغمر الرجال بالامل ويلقمهم حليب التسامح ويقف بجانبهم في اولى الخطوات المهتزة ليجنبهم وحشية الذكورة التي تدمر دواخلهم قبل غيرهم

كنت ولا ازل اعتقد ان الرجل كائن يحتاج لترويض مكثف وتدريب عصيب ،بينما الانثى تولد متسامحة مع طبيعة الحياة السخية والعطاء المتفاني ،لذا كان الرجال ولايزالون بكل جلف وكبرياء يحكمون ، لا لميزة في عقولهم او ارواحهم ، بل لسماح الانثى الخصبة لهم بالمرور في حياتها بكل وحشيتهم الفضة وهي تحاول ان تربي وتروض وتنبت للدنيا ثمارا يانة من قحط فحولتهم

في الثلاثين بدأت أرى الخطاب يحدثونني بغرور لم يكن يليق الا بي ، ويحسب علي عيب ومابي من عيب الا أنني نضجت وفهمت الحياة ووعيت عيوب البشر والرجال تحديدا ، فأصبح قبولي لأي متقدم تحديا كبيرا لي قبل أن يكون له ، وقد تغير معنى الحب في قلبي وكبر ، لم أعي الا وأنا وحيدة في زمرة الاربعين ، أراقب صوري العشرينية أكثر من نظري للمرأة ، وكأن فتاة العشرين بكل صخبها وجنونها تسكنني وتعشش في تفكيري، بينما فتاة المرأة الاربعينية تلك لا تعني لي شيئا

في الحقيقة تظل الانثى تضج بالانوثه طالما هناك من يحرك سكون قلبها وينفض غبار السنين عنها ، بل قد تزداد رونقا بنضوجها وفتنة عقلها وركادة تفكيرها ، فتعرف جيدا كيف تحب والاهم من تحب! ،فالحب اصبح قرارا بيدها بعد أن كان قدرا لاتملك لرده شيئا،وان لم تعثر على الرجل المناسب فليست مضطرة أبدا أن تخوض علاقة مفلسة ، فالاهداف قد تغيرت والرؤى قد اكتملت وماكان مغريا بالامس أصبح اليوم سذاجة

وعلى غير توقعي لم أحزن قط في ميلادي الاربعين ، بل كان أروع وأجمل عيد ميلاد مررت به طوال حياتي ، فقد كنت مكثفية بذاتي ،مكتملة بوجودي ومعتزة بوحدي ، باختصار لم أكن انتظر شيئا من أحد ، وهذا ما علمتني اياه الحياة ولو بطريقة قاسية ، فعندما تتوقف عن التوقعات و تتحرك لتسعد نفسك بدل الانتظار لغريب ليحمل هم اسعادك ويتكفل بانجاح حياتك وبلوغ توقعاتك ، تكون قد تملكيت كل معاني السعادة ووصلت أرقى مراتب السلام لانك كامل لا تحتاج لمن يكملك ومبتهج فلا تحتاج من يسعدك، أنني قط لم أهدر يوما في حياتي الا بانتظار، مهما كان نوعه أو هدفه ، أما الايام التي عشتها وحدي أمتلك قرارا و أتمتع بكينونة وجودي وتميزي عن بقية المخلوقات وأتلذذ بكل تفاصيل حياتي البهية البسيطة وبكل النعم العظيمة التي أملكها ،

هي حقا ماتحسب من عمري، فقد توقفت عن الخوف من أي شيء بعد أن كانت الوحدة أقسى مخاوفي، وهذا الشعور العظيم بالامان والسلام لا يقدر بثمن أبدا!

كان دخول فجر في حياتي نعمة عظيمة بل من أعظم النعم التي أهدتني اياها الحياة ، وقد كان بقاء رحمي خاويا يؤلمني اشد الالم ، فما الانثى بلا تكاثر سوى أرض جدداء لا تثمر ولا تزهر "او هكذا كنت أراني" ، ، ومالحب الحقيقي سوى حب الام لاطفالها وتعلق الرضيع بصدر أمه الخصب، وتلك النظرات الرقيقة التي يتبادلانها وقت الرضاعة، حب حقيقي، صاف، رقيق ومقدس، بل هو أسمى درجات الحب وأجملها ، ولا تقدر بثمن تلك اللحظة التي تلتقي فيها الام بجنينها لأول مرة فيلقى على صدرها باكيا ساعة الولادة فتنسى كل الوجد ، ويحتل حبه كل فراغاتها ويمحو كل المصاعب التي خاضتها

لم أكن أن أتخيل كمية الحب والأنس واللفظ الذي تشعرني به هذا الجميلة الشقية ، كأمرها مجنونة عصية الدمع تدخل قلب كل من يراها بلا اسئذان، صافية كزخات المطر ، غزيرة الحنان لذيق اللسان ، من الغريب أنني وهيام لم نتناقش قط من قبل ولم تحدثني كيف حصل هذا الامر، وكيف وقعت في فخ هذا الرجل، أراهن أنه لم يكن عاديا ذلك الذي سيسلب لب هيام التي لم يقدر عليها أحد من قبل ، ولم يتمكن من قلبها رجل غيره ، عبدالله الغريب !

كان كل شيء غير متوقع ولا مدروس ولا متنبأ به ، وكأن القدر يسير بنا لمكان لا نعرفه وبأسلوب لا نفقه ، وكيف لبشر مهما احتد ذكاءه أو ملك مالا يملكه الآخرون من الفهم والحكمة أن يدرك تقادير الزمان ويتوقع منعطفاته المفاجأة؟

بالفعل كان كلب عبدالله هو دليلنا اليه ، فقد عثرنا على اعلانه حيث صورته يحمل كلبا ضائعا بوجهه الحزين الشاحب بينما الكلب بعيونه الباسمه يدلل لسانه بفرح ، توقفت كثيرا عند تلك الورقة المبلله بأوحال المطر والمعلقة على شجرة في وسط البلدة ، كانت عيناها تفيض بالدموع وهي تتأمل وجهه وتلمس صورته بأناملها فشعرت بحبها الغزير الذي لا يمكنها اخفائه، نظرت لفجر التي تلهو قافزة على الرصيف ولا تدري شيئا

- فجر تعالي يا حبيبتي ، انظري لبابا

اقتربت فجر وحملت بعينيها البريئين وأكملت قفزها اللامبالي بينما وضعت يدي على كتفها

- إذن هذا الرجل هو عبدالله الذي سلب عقلك

- هذا زوجي الحبيب يا أمل

قالت ودموعها تكاد تفر من عينيها الصامدتين

- لا داعي لتشرحي لي شيئا ، لا يهمني إلا أن تكوني سعيدة

تعانقنا طويلا باندفاع أخوي متعب، وكانت هيام تجهش ببكاء لم أتوقعه منها أبدا ، ضحكنا سويا ونحن ننواري دمعاتنا .

- أعتقد أننا اقتربنا؟

- نعم يا أمل ، لا يفصلني عنه إلا هذا الهاتف

أشارت لرقمه المكتوب بخط عريض على الإعلان

- هيا اتصلي إذن

- أنا خائفة ، لا أعرف ماذا سيجيب عندما يسمع صوتي .. ربما لن يتذكرني !

قالت ويديها ترتجف وهي تمسك الهاتف

- هاتي إذن أنا سأكلمه

- سيكون ذلك أفضل

أمسكت الهاتف وبدأت بدق الأرقام بتمهل بينما أتأمل وجه هيام المرعوب وهي تعض شفتيها بلا وعي ، دقة ، دقتان ، رد عليّ صوت أجش بلكنة بريطانية بحتة

- مرحبا

- مرحبا هل أنت الأستاذ عبدالله

- أوو..لا يا عزيزتي للمرة الألف أخبر الناس أن صاحب الرقم لم يعد موجودا !

- أعتذر لك ، ولكن هل تعلم أين هو؟ أو ماهو رقمه الجديد؟

- لا أعلم عنه شيئا إلا أنني قد اشتريت رقما لعينا كان له

أقفل الانجليزي الغاضب الهاتف في وجهي ، بينما تصنمت في مكاني وأنا لا أعلم
ما أقول ، حسنا ربما الأمور لا تسير حسب ما نريد ، علينا أن نعترف أن الأمور
لا تسير على مايرام دائما .

- حسنا ! ماذا سنفعل ؟
- لابد وأن نعثر عليه لا تقلقي ، ربما هو الآن يتمشى في الشارع المقابل
- قلت ضاحكة وأنا أرى اليأس وقد تسلل لعينيها
- ولكن ماذا سنفعل الآن !
- لا شيء سنعود للشقة ونستمتع ببقية اليوم ، لابد وأن نجد حلا .

كنت اتبسم وأمازح فجر طوال الطريق محاولة كسر حاجز الخوف والقلق والترقب
للمجهول الذي سقنا أنفسنا إليه ، ماذا سنفعل ؟ في الحقيقة لست أدري ولا أدري لو كنا
سنعثر عليه من بين ملايين الأشخاص الذين يعيشون هنا؟

أو لو كان مسافرا مثلا ، حيا أو ميتا؟ ولو عثرنا عليه هل سيتقبل فجر وأمها بعد هذه
السنين أم يعيدنا من حيث بدأنا وينكر طفلته التي قطعت كل تلك المسافة لتراه ؟

وماذا لو لم نعثر عليه كيف سنعود ؟ ولمن ؟ فلا أهل يمكنها أن تعود لهم الآن ، لا
مصير آخر نسعى إليه، كنت أعرف حجم الهواجس التي تشغل هيام ولكننا سلطنا
طريقا لا عودة فيه .

بقينا أياما طوالا وربما أسابيعا لم نغادر الشقة حتى ، حيث حط علينا إحساس حاد
بالغربة و الكآبة خاصة مع استمرار هطول الأمطار وغياب الشمس الكامل ، وكأن
المطر يجلب معه المزيد من الأسئلة المحيرة والعديد من الأجوبة المؤلمة والخيارات
الممكنه التي لو ولو فعلناها أو فعلتها ما كنا هنا بالتحديد، والكثير من التساؤلات
عن مدى استحقاق أي رجل كائنا من كائن ، هذا الحجم الهائل من التضحيات ، لا
إنسان رجل أو امرأة قد يستحق التضحيات من جراب سعادتنا ، لأن التغير هو سمة
الإنسان " وما سمي الانسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب " ، كنت أشعر بتوتر
هائل وكانت هيام كذلك ، وانتقل إلى فجر من خلال مناكفاتنا المبطنة فكانت تثور
وهي تراقبنا وتظل تبكي طوال الليل بلا أسباب واضحة ، كنا نعلم وننكر ولا نتحدث .

في ذلك اليوم رحت أكثر في البحث في مواقع التواصل الاجتماعي وبحثت باسم الكلب موكي والمفاجأة أنني بعد بحث طويل حصلت على عنوان فتاة هندية تحمل ذات الكلب وذات الاسم موكي ، وتسكن قريبا من المنطقة التي نحن فيها ، تواصلت مع الفتاة دون أن أخبر هيام بالأمر ، فقد كنت أطمح أن أقدم لها خبرا سعيدا كاملا بلا منغصات تذكر فرحتها ، فماذا لو كانت الفتاة الهندية تلك زوجته او حبيبته مثلا ؟ أثرت الكتمان وتبادلت الرسائل معها فأخبرتني أن الكلب موكي يعود لرجل عربي يدعى عبدالله كان يسكن جارا لهم ولكنه اختفى بعد أن مات الكلب ، ولكن الخبر الأسوأ أنها سمعت لاحقا أنه انتحر ملقيا بنفسه من أعلى جسر نهر التايمز ، حيث ألقى بنفسه في ليلة مظلمة شديدة البرودة وسط عاصفة هوجاء ، وهي لا تعلم إن كانوا قد عثروا على الجثة وعلى الأرجح ليس له أقارب ، وكما قالت أستطيع أن أتأكد من كل شيء بمراجعة مستشفى لندن المركزي فبالتأكيد سيحتفظون بسجلات مصورة تؤكد الخبر ، كانت أخبارها تتوالى عليّ كالسكاكين تطعن قلبي وأنا أتخيل موقف هيام عندما تعلم بما جرى لعبدالله المسكين .

كتمت الخبر لأسابيع وأنا أشعر بغصة تحبس الكلام والبكاء في حلقي ، وأتجنب الجلوس إلى هيام لإحساسي العظيم بالذنب والألم كلما فكرت بماذا سيحدث لها ، أحدث نفسي أحيانا بأنه ربما عليّ أن أخترع شيئا ما وأرجع بها للوطن ، وربما عليّ مصارحتها بالأمر فهي قوية وستحتمل ، وماذا تراهي أن أفعل غير هذا وإلى متى سنبقى نبحث بين الأحياء عن ميت؟

ازدادت علاقتنا توترا حتى لم أعد أطيق الجلوس بالشقة وكأنما أهرب منها ومن حقيقة أمر أعجز عن مصارحتها به ، وكأنني أتمنى أن تعرف بطريقتها وليس من خلالي ، كنا ننشاجر كثير وكانت تلح عليّ وتصير أنني تغيرت جدا وأنني ربما أكون قد مللت وندمت على القدوم معها ، وكنت أكتفي بالنظر إليها نظرات تزيد حيرتها والابتعاد لاي مكان لا يصلني صوتها فيه ، كانت تردد كثيرا بأنه يمكنني العودة لو أردت وستكمل الطريق وحدها وأنها تقدر كل التضحيات التي قدمتها ، فلا تحصل مني الى على مزيد من الصمت ، كنت أراقبها وهي نائمة تحضن فتاتها وأتخيل الكلمات التي سأنطقها حالما تستقيظ ، ثم أترجع وقد أرتجف قلبي ، فليس هناك أصعب من حمل سر مؤلم وحدنا حتى لا نجرح به غالينا ، فنبقى وحيدتين نحتمل منه الاذى الذي نخوضه لاجله وهو لا يعلم ، وماذا عساها أن تفعل والى أين ستذهب ، فلا أهل يمكنها

أن تلوذ بهم بعد مافعلته وبعد أن صفت كبريائهم مرتين فلا يمكنها قط العودة للوطن،
ولا تعرف أحد في هذه الغربة ليساعدها لتكمل حياتها

الملل هو هالعامل الوحيد الذي يساعدنا، كالبطل الصامت يعيننا لنتخلص من علاقات
باتت بلامعنى وهو ماكنت أعول عليه وانتظره في كل علاقاتي السابقة سواء بأصدقاء
أو أحياء ، فلا أحتمل انتهاء العلاقة والاختفاء من حياة اي شخص وقد تعلقت به فجأه ،
بل اترك الايام تمحوه بالملل والتزامن حتى يختفي وينمحي اثره دون ان أبذل جهدا
مضاعفا لنسيان مشاعر ثائرة لا تنسى ، لم أقطع يوما علاقة ولم أنسحب من حياة اي
شخص ولا تركت أحدا ينسحب من حياتي فجأة، هكذا كنت أحافظ عليّ وأحمي
مشاعري من فجائية الحرمان ، وربما هذا ماسيحدث بيني وبين هيام ! سيقتلنا الملل
بلا شك وننسحب بهدوء ونعود غرباء من جديد!

مرة من المرات احتد الشجار بيننا حتى اقتربنا من التشابك بالأيدي ، كان ظاهريا من
أمر تافه بخصوص ثياب فجر ، لكن البواطن لا تخرج الا لحظات الغضب ، وزلات
اللسان تخرج مافي الصدور الممتلئة

- ارحلي ! لم أعد أريدك معي هل تفهمين ؟
- كفي عن ذلك ياهيام فقد تحملتك كثيرا ، وتحملت سوء طباعك !
- لست مضطرة لتحمل المزيد! قلت لك ارحلي !
- لن أرحل ! لن أترك ابنتي !
- إذن تريدان أن تخطفنيها كما خططت من قبل ؟!! كنت أعلم أنك تخفين عني
شيئا
- أنت مجنونة
- نعم مجنونة ولن أسمح لك بخطف فتاتي فهمتي
- أنت لا تفهمين شيئا أيتها الحمقاء
- ولا أريد أن أفهم شيئا منك أريدك أن ترحلي الآن
- حسنا إذن سأرحل ، ولكن عليك أن تعلمي أن عبدالله قد انتحر ملقيا بنفسه في
نهر التاييز ، وهذا ما كنت أخفيه عنك أيتها المعتوهة !

حملت معطفي بغضب من على الاريكة مغادرة الشقة وقد سالت دموعي وأنا أودع
وجه الهيام الممتقع وقد أسود ولم تقو رجليها على حملها فجثت على الأرض ،

بينما مشيت أنا تحت هتان المطر ، عله أن بيرد شيئا مما يشتعل في من نيران،
نيران لم أك أعلم حجمها ولا خطر اشتعالها ، فبعد كل ما فعلته لتلك الإنسانية
عجزت أن أقف معها حتى النهاية ، وعجزت هي أن تثق بي وتنسى أمرا قد
راودتني نفسي به وأحجمت عنه ، ليس لأي علاقة معني بلا ثقة وليس لأي ثقة
معني إن كنا نظل نخاف من ذات الأخطاء أن تتكرر ولن نستطيع أن ننسى .

مشيت مسافات طويلة لا أهتدي لطريق وتعتصر في قلبي الكثير من المشاعر ما
بين شعور بالذنب والعجز وما بين نكران الجميل والخوف من فقدان ،
وتتجاذبني الأفكار المترددة ذاتها التي تستيقظ في كلما اختلافنا لكن أقدامي بعد
ساعات من الثورة والهدوء قادتني بلا تردد لنفس المكان ولنفس الوجوه التي
ألقتها وأحببتها ، لحضن هيام وفجر ، تعانقنا طويلا وذرفنا الكثير من الدموع
الحرا ، يخطئ من يظن أنه يمكننا الفرار ببساطة من أقدارنا أو نسيان من أحببناهم
يوما بصدق ، لا قرار قد يفرمت عقولنا ويعيدنا من لحظة اللابدء لاشيء أبدا .

بعد انتهاء تلك الليلة العصبية التي قضتها هيام في نوم عميق أو ربما هكذا
تظاهرت لتريحنا ، استيقظت مبكرا على ووجهها الحازم وقد ارتدت معطفا أسودا
ونظارة سوداء وجهزت ابنتها وهي توقظني باستعجال

- أمل استيقظي لقد انتصف النهار

تأملتها بوجه شبه نائم وأنا بالكاد أفتح عيني

- سأذهب وفجر للمستشفى لاستلامه ، لقد تركت لك حليبا ساخنا وبعض البيض
على الطاولة

- لحظة انتظري ، سأذهب معك

- لا داعي ياعزيزتي ، لن نتأخر

- هيام .. قلت سأتي معك انتظري

ماهي إلا لحظات وإلا ونحن نركب الليموزين ونمشي في صمت مخيف في مواقف
المستشفى قسم الحوادث ، الحروق ، الوفيات ، قالت بحزم مستنكر وهي تقترب من
موظفة الاستقبال في القسم

- سيدتي أبحث عن متوفى اسمه عبدالله العبدلله

- أقرباء؟

نظرت الموظفة بشفقة لنا وفجر اللاهية

- أنا زوجته وهذه ابنته
- أنا آسفه سيدتي
- لا بأس ، فقط أريد ان أستلم الجثة وأدفنها دفنا لائقا لو سمحت
- حسنا دعيني أبحث في قائمة الوفيات
- خذي وقتك
- لم أعثر على اسمه ! هل أنت متأكدة أنه نقل للمستشفى المركزي ؟ قد يكون قد نقل لمشفى آخر.. أعطيني تاريخ الوفاة لو سمحتي
- عزيزتي لا بد أنه هنا فوفيات الانتحار والجرائم تنقل إلى هنا ، ولا أعرف تاريخ الوفاة بالضبط .
- لا أدري .. لا أعرف كيف أساعدك
- بدأت هيام تتململ وقد تغير صوتها واحتد
- ستساعديني كثيرا لو قمت بعملك جيدا و استعملت عينيك الجاحظتين وانت تبحثين
- هيام ما بك !
- صرخت بها واجلستها وربت على كتفها وهي ترتجف وأمسكت فجر واعتذرت للموظفة المذهولة بهدوء
- عزيزتي .. انها تمر بظروف صعبة ارجو أن تراعي ذلك
- نعم .. استطيع ان اتفهم الامر
- في الحقيقة لا تستطيعين تفهم الامر لو تحدثنا بدقة .. فظروفها مختلفه فزوجها انتحر وهي في مدينة اخرى ولديها مشاكل مع عائلتها .. الامور جدا معقدة!
- حسنا و كيف استطيع خدمتكم !
- ابحتي مرة اخرى لا بد أنه موجود!
- بحثت انه ببساطة غير موجود لدينا !
- اعرف انك بحثتي ولكن ابحتي من جديد!

قالت وهي تصرخ غاضبه

- هل تظنين انه لا يوجد لدي أناس آخرين مجروحين ينتظرون استلام جثث اعزائهم الا هي؟
- ارجوك! لآخر مرة !
- لا يوجد .. هذه قائمة الوفيات أمامك ! هل تريدان أن أبحث في قائمة الاحياء ربما استفاق بعد الموت !

قالت ساخرة غاضبة وهي تضرب بأصابعها باحثه في القوائم الاخرى

- عبدالله العبدالله
- نعم هو !
- قد يكون شخص اخر بنفس الاسم ، عليكم التأكد من ذلك بأنفسكم الغرفة رقم 501
- هل هو حي؟
- لا اعرف ! اذهبو الان والا استدعيت الامن ! لدي عمل لاقوم به هنا !

سحبت أقدامي ببطء ومشيت نحو شبح هيام الجالس امامي أمسكت يديها المرتجفة ومشيت بها وبفجر وهي تنظر لي ببلاهة واستغراب ولم أنبس لها بكلمة ، وصلنا للغرفة 501 ، دخلنا مرتجفين ، وفي نهاية الغرفة كان هناك رجل بلامح عربية حادة ووجهه شاحب يرقد على السرير الأبيض منطويا حزينا ، بعد أن باءت محاولة انتحاره بالفشل بينما طفلة صغيرة تحاول تسلق سريره بيدها الصغيرتين ومؤخرتها المنتفخة وعيون دامعة ترمقهما ، وحب عظيم ينتفض من بين الركام